
قافلة الزيت
ذو القعدة ١٣٩٧هـ - اكتوبر/نوفمبر ١٩٧٧م



مغارة قاديشا في لبنان من روائع الطبيعة التي أبدعتها يد الخالق سبحانه وتعالى .

راجع مقال « الأنهار ذوات الأسرار »

تصوير : خليل أبو النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد الحادي عشر - المجلد الخامس والعشرون

تصدر شهرياً عن شركة أرامكو لموظفيها
إدارة العلاقات العامة
توزع مجاناً

العنوان
صندوق البريد رقم ١٣٨٩
الظهران - المملكة العربية السعودية

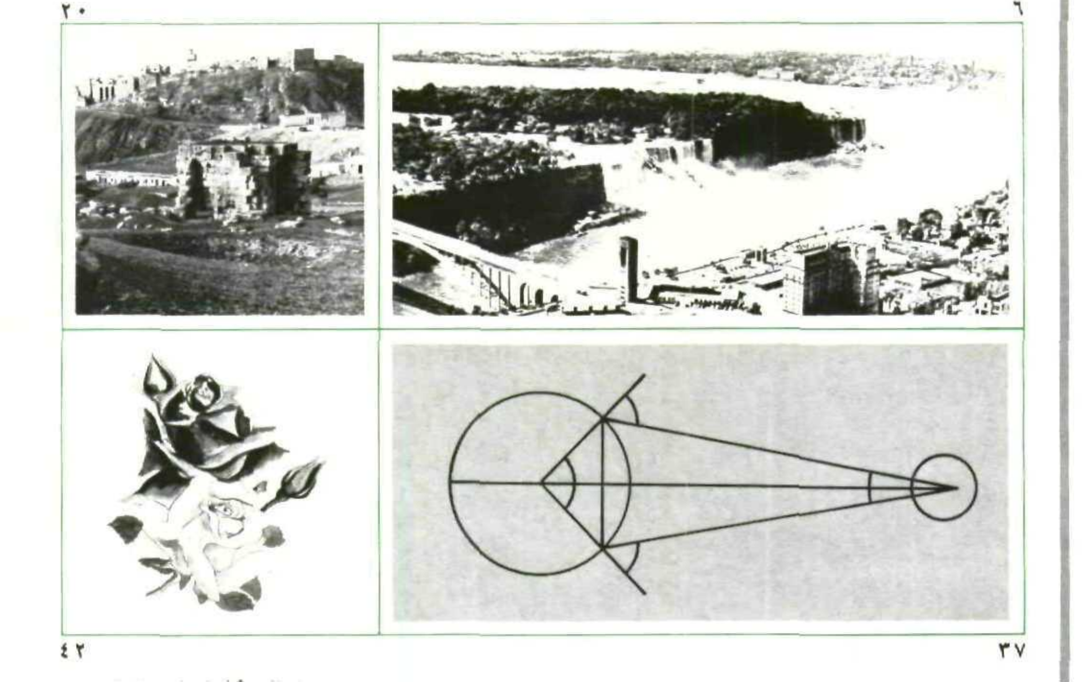
المدير العام : فيصل محمد البسام
المدير المسؤول : عبد الله صالح جمعة
رئيس التحرير : عبد الله حسين الغامدي
المحرر المساعد : عوني أبو كشك

التعليق على صورة الغلاف

لوحة ترمز للابتكارات العلمية التي انجزهـا العلماء المسلمون في حقل الرياضيات .

راجع مقال «دور الارقام العربية في الحضارة الاسلامية»

محتويات العدد



المدارس النحوية

بقلم: الدكتور أحمد جمال العمري

المدرسة، في اعتقادي، مذهب فني خاص له سمات محددة، قد تتفق أو تختلف مع سمات مذهب آخر، هذا المذهب يرسمه ويحدده ويضع أصوله فرد معين، وتكون له المقدرة على اقناع أفراد آخرين به، فينتهجونه، ويسيرون على نهجه. والمدرسة – في نظر بعض الباحثين (١) ليست الا استاذا مؤثرا وتلاميذ، وقد اجتمعوا على تحقيق غرض معين، ونهجوا للوصول اليه منهجا موحدا.

وقد اعترف القدماء بقيام مدارس نحوية في مراكز العراق الثلاثة، سميت كل منها باسم المركز الثقافي الذي نشأت فيه. فكانت أولى المدارس وأسبقها «المدرسة البصرية» ثم أعقبتها بنحو قرن من الزمان «المدرسة الكوفية». وأخيرا قامت «المدرسة البغدادية».

فالزبيدي – في طبقاته – يقسم النحويين الى بصريين وكوفيين، وان كان يتجاهل البغداديين ثم يضم اليهم المصريين والقرويين والأندلسيين (٢).

وابن النديم يذكر البغداديين (٣)، ويضعهم في أعقاب البصريين والكوفيين. وهناك من المترجمين والمؤرخين (٤)، من ينص صراحة، حين يترجم للعلماء والأدباء، على أن هذا العالم بصري، وذاك كوفي. وفي هذا التحديد دلالة أيضا على اعترافهم بوجود المدارس النحوية المختلفة. وبأن كل مدرسة تغاير الأخرى.

وقد تابع الباحثون المحدثون – القدماء، واقتنعوا بصحة هذه التقسيمات الاقليمية التي وضعوها، واقتنعوا بالتالي بوجود مدارس نحوية قديمة متميزة، من هؤلاء الأستاذ أحمد أمين حيث يقول (٥): «... وأيا ما كان الأمر، فقد اختلفت مدرسة الكوفة عن مدرسة البصرة في مبادىء أساسية»، والأستاذ الدكتور شوقي ضيف (٦)، حيث تناول دراسة كل مدرسة على حدة، ناهجا منهج الزبيدي في طبقاته.

والأستاذ الدكتور يوسف خليف (٧)، حيث تناول دراسة علماء كل مدرسة على حدة، وتعقبهم تاريخيا ثم تحدث عن التقاء المدرستين في بغداد.

وقد اقتنع بعض المستشرقين – كذلك – بفكرة المدارس الاقليمية، التي حددها القدماء منهم بروكلمان حيث يقول: «.. وقد قسم علماء العربية مذاهب النحاة الى ثلاث مدارس، البصريون، والكوفيون، ومن مزجوا المذهبين من علماء بغداد (٨)»، كما رتب بروكلمان العلماء حسب أقاليمهم، فترجم أولا لعلماء البصرة، ثم لعلماء الكوفة، ثم لعلماء بغداد. ويقول يوهان فك (٩): «وكان لعلماء البصرة مذاهب معتمدة في القياس النحوي، تختلف عن مذاهب الكوفيين».

على أننا نجد بعض المستشرقين يتشككون في قيام مدرسة كوفية أصلا، وسلم برأيهم بعض المحدثين، فقالوا: «اننا لا نستطيع في الحقيقة أن نقول بوجود مذهب مكتمل لنحاة الكوفة، وهو أمر سبق أن بينه قايل (١٠)».

هذه هي نظرة القدماء والمحدثين الى المدارس النحوية. ونحن لا يسعنا الا أن نسجل نتيجة لدراستنا في هذا المجال، أن المدارس النحوية كانت حقيقة قائمة، لا يمكن تجاهلها أو اغفالها. كان لكل مدرسة علماؤها وتلاميذها، ولكل مؤيدوها، المقتنعون بمنهجها، ولكل مصنفاتها وأبحاثها، ظهرت المدرسة البصرية أولا، ثم ظهرت المدرسة الكوفية بعدها، ثم امتزجت المدرستان واختلط المذهبان والمنهجان في بغداد.

فاذا كانت المدارس النحوية حقيقة واقعة.. فمن الذي أنشأها.. ومتى.. وكيف بدأت؟ ثم – ما هي الخصائص التي تميز كل مدرسة عن الأخرى؟

قبل أن أجيب عن هذه التساؤلات.. أود ألا نخوض غمار البحث عن أولية النحو العربي، ومن الذي أنشأه.. ولماذا.. وكيف.. وبأي الأبواب بدأ.. فكل هذه أمور لا تنتهي الى نتيجة يقينية، وقد تناولها كثير من القدماء والمحدثين (١١). انما الذي نود أن نسجله هنا هو قيام المدرسة النحوية بشكلها الحقيقي المتكامل، الواضح القسمات، المحدد المنهج والخصائص.

ففيما يتصل بمدرسة البصرة، يكاد يجمع الباحثون على أن أول من نسبت اليه آراء نحوية في كتب النحو هو «عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي (١٢)»، فهم يقولون انه كان أعلم أهل البصرة في وقته. وكانت له آراء واجتهادات، ووضع رسالة في الهمز، تعد أول بحث في المسائل النحوية. كما استطاع أن يستغل القياس بمهارة في أبحاثه. أي أن الخطوة الأولى – وهي خطوة بدائية – كانت التأليف في مسألة من المسائل الصغيرة. ثم جاءت خطوة أكثر نضجا، وأشمل تأليفا، وهي جمع المسائل النحوية في كتاب. وقد قيل أن عيسى بن عمر الثقفي كان أول من فعل ذلك، حيث صنف كتابين في النحو. سمى أولهما «الجامع» أي الذي يجمع مسائل النحو، وسمى الثاني «الاكمال» أو «المكمل». ثم جاءت الخطوة الأخيرة في مدرسة البصرة، وهي اختراع أصول النحو على يد «الخليل بن أحمد» الذي استطاع أن يحدد عناصر هذا الاختراع، وأن يستنبط أصوله، ثم ترك الخليل تدوين وتسجيل هذا الاختراع بكل أصوله وفصوله، الى تلميذه الأثير «سيبويه» حيث ظهر لنا النحو البصري مدونا في صورة نهائية وواضحة في كتابه.

أما فيما يتصل بالمدرسة الكوفية. فقد اختلف فيمن أسسها ووضع قواعدها، الا أن أكثر العلماء متفقون على أن أبا جعفر الرواسي هو المؤسس الأول لهذه المدرسة (١٣).

ويرى بعض الباحثين (١٤): أن الكسائي هو المؤسس الحقيقي للمدرسة الكوفية، استنادا

● قضيــــة هــامــة ... شغلت الأوســـاط العــلمية في القـــديــم والحـــديث

● مامعنى المـــدرسة النحوية ؟... وما هو مفهومها في نظر العلماء والباحثين ... ؟

الى أن الرواسي ، لم يخلف لنا كتبا أو رسائل في النحو ، يستحق بها أن يكون مؤسسا لهذه المدرسة النحوية .

ولسنا الآن بصدد تفنيد الآراء لتأييد هذا أو ذاك . بيد أننا نستطيع أن نقرر — أن الرواسي هو واضع علم النحو الكوفي ، ومؤسس مدرستها في القرن الثاني ، حيث كان معاصرا للخليل ، في وقت كانت تموج فيه مراكز العراق المتعددة . بمختلف أنــواع الثقافات والعلوم . ومهما يكن من أمر ، وسواء أبدأت المدرسة الكوفية بالرواسي ، أم بدأت بالكسائي ، فان الذي لا جدال فيه — أن المدرسة الكوفية كانت حقيقة تاريخية وعلمية ، وكان لهـــا علماؤها ومؤيدوها . كما كان لها منهجها الذي خالفت فيه منهج المدرسة البصرية .

فاذا كان الأمر كذلك ، فما الفرق بين منهجي المدرستين الكوفية والبصرية ؟ وما هو الأصل العام الذي اختلفت فيه مدرسة الكوفة عن مدرسة البصرة ؟

— ان أهم سمة توضح الفرق بين منهجي المدرستين الكوفية والبصرية ، انما ترجع الى الأصل العام الذي قام عليه بحث النحو عند كل من المدرستين .

فالأصل العام ، الذي قام عليه المذهب الكوفي — هو احترام كل ما جاء عن العرب ، وجعله قاعدة يجوز القياس عليها ، حتى لو كان شاذا ، لا تنطبق عليه القواعد العامة(١٥) . فالكوفيون كانوا « اذا سمعوا لفظا في شعر أو نادر كلام جعلوه بابا أو فصلا(١٦) » . كما أنهم « لو سمعوا بيتا واحدا فيه جواز شيء مخالف للأصول ، جعلوه أصلا وبوبوا عليه(١٧) » .

— أما الأصل العام الذي قام عليه المذهب البصري — فهو اهدار الشواذ ، فاذا ثبتت صحتها ، قالوا : انها تحفظ ولا يقاس عليهـــا (١٨) .

يقول السيوطي(١٩) : « اتفقوا على أن البصريين كانوا لا يلتفتون الى كل مسموع ، ولا يقيسون على الشاذ » . ومعنى هذا — أن البصريين كانوا أكثر حرية ، وأقوى عقلا . وأن طريقتهم أكثر تنظيما وأقوى سلطانا على اللغة ، وان الكوفيين أقل حرية ، وأشد احتراما لما ورد عن العرب ولو موضوعا .

فالبصريون يريدون أن ينشئوا لغة يسودها النظام والمنطق ..

والكوفيون يريدون أن يضعوا قواعد للموجود حتى الشاذ ، من غير أن يهملوا شيئا مـــن الموضوع . وهكذا نلاحظ أن المدرسة البصرية تختلف عن المدرسة الكوفية في موقفها مـــن النصوص التي وصلت اليها . فالبصريون لا يقبلون من هذه النصوص الا ما أجمعت عليه لهجات العرب . أما الشواذ فانهم يهدرونها ، بل انهم يجرؤون أحيانا على تخطئة العرب ، اذا ورد عنهم ما يخالف القواعد التي وضعوها ، وهم على أساس هذه النصوص المجمع عليها يقيمون قواعدهم ، دون أن يكون للشواذ تأثير عـــلى قواعدهم العامة . أما الكوفيون فيقبلون كل ما وصل اليهم من العرب ، ويحترمونه ولو كان شاذا ، ويبيحون القياس عليه . ولو خالف القواعد العامة التي وصلوا اليها ، بل يضعون لكل شاذ قاعدة يجوز القياس عليها . ومن هنا اختلفت المدرستان في المنهج اختلافا أدى بهما الى الاختلاف في النتيجة . فكان النحو البصري أكثر تنظيما . وأدق قياسا من النحو الكوفي ، في حين كان النحو الكوفي أشد تمثيلا للهجات العرب ، وأكثر احتراماً لكل ما ورد عنهم ، أي أن الكوفيين كانوا أسلس خطة من البصريين وان هؤلاء كانوا أكثر تمحيصا . وبعبارة أخرى ، يمكن أن نرى أن الكوفيين كانوا نقلة ، وأن البصريين كانوا نقدة .

---

(١) الدكتور مهدي المخزومي – مدرسة الكوفة ص ١٢٩ (طبع دار المعرفة ببغداد) . (٢) طبقات الزبيدي ص/٢٣٣ ، ص/٢٤٥ ، ص/٢٧٥ . (٣) الفهرست ص/٣٩ وما بعدها . (٤) مثل ابن الانباري وابن خلكان والسيوطي وياقوت وغيرهم . (٥) ضحى الاسلام ٢/٢٩٤ . (٦) المدارس النحوية ، طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٦٨م . (٧) حياة الشعر في الكوفة ص/٢٤٢ . (٨) تاريخ الأدب العربي ٢/١٢٤ . (٩) العربية ص/٦١ ترجمة المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار . طبع دار الكتاب العربي بالقاهرة سنة ١٩٥١ . (١٠) وهم مصنفو دائرة المعارف الإسلامية ٦/٢٠٠ طبعة سنة ١٩٣٥ . وقايل هو مؤلف المقدمة المشهورة على كتاب « الانصاف في مسائل الخلاف » وقد ترجمها المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار ، ولكنها لا تزال مخطوطة . (١١) أنظر ما كتبه الزبيدي في طبقاته ، وما كتبه السيرافي في أخبار النحويين ، وما كتبه السيوطي عن العلماء في النوع الرابع والأربعين من مزهره . ومن الدراسات الحديثة ، نشأة النحو للشيخ محمد طنطاوي ص/٩ وما بعدها ، والمدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف ص/١٧ وما بعدها . (١٢) من هؤلاء الدكتور يوسف خليف في كتابه « حياة الشعر في الكوفة » ص/٢٦٣ ، والأستاذ ابراهيم مصطفى في محاضراته في أصول النحو . (١٣) من هؤلاء السيوطي في البغية ص/٣٤ ، والزبيدي في طبقاته ، والأستاذ أحمد أمين في « ضحى الاسلام » ٢/٢٩٤ ، والأستاذ الدكتور شوقي ضيف في « حياة الشعر في الكوفة » ص/٢٤٨ . (١٤) مهدي المخزومي « مدرسة الكوفة » ص/٤٠٧ طبع بغداد . (١٥) ضحى الاسلام ٢/٢٩٥ . (١٦) السيوطي : همع الهوامع ١/٤٥ طبع القاهرة سنة ١٣٢٧هـ . (١٧) السيوطي « الاقتراح » ص/١٠٠ ، طبع حيدر أباد سنة ١٣١٠هـ . (١٨) ضحى الاسلام ٢/٢٩٦ . (١٩) الاقتراح ص/١٠٠ .

وخلاصة الموقف أن الكوفيين كانوا أكثر جرأة في موقفهم ، وأكثر حرية في منهجهم ، في حين كان البصريون متقيدين متحفظين ، وان منهج البصريين بما فيه من ميل شديد الى « التقعيد » كان أقرب الى طريقة التعليم ، ومذهب المعلمين المقننين ، في حين أن منهج الكوفيين بكونه أقرب وأوقع الى فهم طبيعة اللغة ، كان بذلك مذهب العلماء المحافظين . وللحق فان هذا المنهج الذي اتبعه الكوفيون ، كان موجودا في البصرة ذاتها مع وجود المنهج الثاني(٢٠) . وكانت هاتان النزعتان في البصرة في أيامها الأولى ، فهم يقولون أن ابن أبي اسحق الحضرمي ، وتلميذه عيسى بن عمر ، كانا أشد ميلا للقياس ، وكانا لا يأبهان بالشواذ ، وكانا لا يتحرجان من تخطئة العرب . وكان أبو عمرو ابن العلاء وتلميذه يونس بن حبيب البصريان أيضا علــى عكسهما ، يعظمان قول العرب ويتحرجان من تخطئتهم ، فغلبت النزعة الأولى على من أتى بعد من البصريين ، وغلبت النزعة الثانية على من أتى بعد من الكوفيين(٢١) .

ومع ذلك فليس يعني وجود المدارس المتميزة . أن يكون بين كل مدرسة وأخرى حدود وفواصل مانعة ، بل هناك قدر مشترك بين الجميع ، وهذا الاشتراك لا يتنافى مع التمييز والتشخيص .

أما عن الأسباب التي أثرت في مذهب الكوفيين النحوي ، وحـددت منهجهم ، وميزته عــن مذهب البصريين ومنهجهم ، فيبررها الدكتور يوسف خليف بقولــه (٢٢) :

« ان الارستقراطية العربية كانت مسيطرة على هذا المجتمع فترة طويلة ، وان الحياة القبلية والعصبيات القبلية كانت مقوما أساسيا مــن مقوماته ، وهذا — بطبيعة الحال — يجعل علماء الكوفة أشد حرصا على التراث الأدبي واللغوي لهذه القبائل ، وأكثر احتراما لكل ما يروى عنها ، وأشد ايمانا ، بأن كل ما نطقت به العرب صحيح وصالح لأن يستعمله الناس ، ويقيسوا عليه ، ولا يصح أبدا أن يعد ما نطقت بــه العرب شاذا لا يقاس عليه ، كما لا يصح أن نخضعه لقواعدنا، فما اتفق معها قبلناه ، وما استعصى عليها رفضناه أو عددناه شاذا ، وهذا كله أثر من آثار سيطرة الروح العربي الارستقراطي على المجتمع الكوفي . أما البصرة ، فقد كانت أخلاطا من الأجانب فلا بد أن تكون القواعد التي توضع لهم ليتعلموا على أساسها العربية ، قواعد دقيقة لا تشعب فيها ، ولا تعدد ولا استطالة ، حتى لا يضلوا بينها ، ولا يستعصي عليهم حصرها . فاذا أضفنا الى هذا أن الثقافات الأجنبية ، وبخاصة الثقافة الفلسفية كانت من الأسس التي قامت عليها حياة البصرة العقلية ، استطعنا أن ندرك السر في اتجاه البصريين الى اخضاع ما وصل اليهم عن العرب لمقاييس العقل والمنطق والبحث الفلسفي .

أما ثالث المدارس النحوية — التي قامت في البيئة العراقية ، فهي المدرسة البغدادية ، نسبة الى بغداد ، التي ظهرت حوالي منتصف القرن الثاني الهجري ، وقد قيل انها مدينة ملك وليست بمدينة علم ، وما فيها من العلم منقول اليها ، مجلوب للخلفاء وأتباعهم(٢٣)، ولكنها استطاعت بحكم أنها حاضرة الدولة ، ومدينة الخلفاء والأمراء ، أن تجتذب العلماء والشعراء ، وأن تفرض وجودها عــلى مدينتي البصرة والكوفــة .

وقد اختلف في حقيقة هذه المدرسة .. فمن الباحثين من يرى انها امتداد للمدرستين السابقتين وامتزاج للمذهبين . ومنهم من يرى أنها مدرسة قائمة بذاتها استطاعت أن تكوّن لنفسها منهجا وآراء . ومن الباحثين من ينكر وجودها كلية ... فبعض الباحثين يروون أن المذهب البغدادي ليس الا مذهبا انتخابيا وسطا ، يشمل الخصائص المنهجية للمدرستين البصرية والكوفية جميعا(٢٤) . يقول الأستاذ أحمد أمين : « وكان التقاء الكوفيين والبصريين في بغداد سببا في عرض مذاهب المدرستين ، واتجاهاتهما ثم نقدها والانتخاب منها » . ويقول الأستاذ محمد طنطاوي(٢٥) : « انه بالتئام عقد الفريقين في بغداد ، نشأ المذهب البغدادي الذي عماده الترجيح بين الفريقين » . وزعم الدكتور أحمد مكي الانصاري — أن المدرسة البغدادية انما نشأت عن امتزاج المدرستين تدريجيا حتى استوى أمرها ، وان الفراء هو المؤسس الحقيقي لها(٢٦) .

وبعض آخر يرى أنه تخرج برجال الكوفة « جماعة مــن البغدادية ، أولعوا بالتوسع في الروايات والتباهي في الترخيصات ، والتفاخر بالنوادر والطرائف حتى ابتعدوا عن أصول أشياخهم ، واستوى لديهم مذهــب انحاز عــن مذهب أسلافهم عرف بمذهب البغداديين(٢٧) » .

وبعض ثالث — ينكر كلية وجود هــذه المدرسة ، ويقول : « ان ما ذهب اليه بعض الباحثين من أن هناك مدرسة نحوية باسم مدرسة بغداد ، متميزة عن المدرستين البصرية والكوفية ، لا يتفق مع ما كان يراه الأقدمون والأولون من أصحاب التراجم والطبقات ، ثم هو لا يتفق كذلك مع نصوص العلماء الأقدمين ، فابن النديم لا يسمي مــن خلطوا بين المذهبين بغداديين ، والزبيدي يذكر في كتابه النحاة واللغويين مــن البصريين والكوفيين والمصريين والقرويين والأندلسيين ولا يزيد » ويستطرد بعد ذلك قائلا : اذن فلم يكن هناك فيما أرى مدرسة بغدادية قائمة بنفسها لها تعاليمها(٢٨).

ويؤيده في هذا الرأي الدكتور فاضــل السامرائي فيقول(٢٩) : والذي أراه في هذا الشأن انه لا يصح اطلاق اسم « مذهب » أو « مدرسة » الا أن تكون هناك أسس مستقلة ، وآراء متميزة واضحة محددة ، والا فهو اما مذهب بصري ، أو مذهب كوفي ، وأرى أن المكان وحده لا يصح أن يسم المدرسة باسم ما ، فتعد مدرسة نحوية مستقلة .. وعلى هذا فأنا أرى أنــه لا يثبت وجود مدرسة بغدادية ، الا اذا ثبت انها مدرسة مستقلة ، ذات أسس مستقلة ، وكيان خاص ، وآراء مستقلة ، وان نحاتها يتصفون بهذه الصفات أيضا . وذلك لم يثبت عندي فيما بين يدي من المصادر .

هذا بعض ما قيل حول المدرســة البغدادية ، وأيا ما كان الأمر ، فان المدرسة البغدادية انما كانت حقيقة واقعة ، ظهرت نتيجة للتأثر والتأثير ، وبفعل التفاعل العلمي بين أنحائها وعلمائها بعد أن فرضت وجودها ، واجتذبت العلماء من كل مكان ، وفي كل فن ، وجمعت بينهم في القصور والدواوين ، فكان أن نشأت المدرسة البغدادية التي قامت على أساس الجمع والتوفيق والمزج بين آراء المدرستين ، بالاضافة الى الاجتهادات التي استنبطها العلماء نتيجة للحاجة العلمية والثقافية ●

د. أحمد جمال العمري
الجامعة الإسلامية — المدينة المنورة

(٢٠) طبقات فحول الشعراء ص/ ١٥. (٢١) ضحى الاسلام ٢/ ٢٩٦ . (٢٢) حياة الشعر في الكوفة ٢٦٨ . (٢٣) المزهر ٢/ ٢٦٠ . (٢٤) الأستاذ أحمد أمين : ضحى الاسلام ٢/ ٢٩٨ ، والدكتور يوسف خليف : حياة الشعر في الكوفة ٢٤١ ، والدكتور مهدي المخزومي : مدرسة الكوفة ص/ ٧٠ .
(٢٥) نشأة النحو ص/ ٢٦ . (٢٦) أبو زكريا الفراء ص/ ٣٦٣ . (٢٧) الدكتور طه الراوي : نظرات في اللغة ص/ ٩ طبع بيروت .
(٢٨) الدكتور اسماعيل شلبي أبو علي الفارسي ٥٤٥ طبع نهضة مصر . (٢٩) ابن جني النحوي ص/ ٢٥١ ، طبع بغداد سنة ١٩٦٢م .

مناجاة

للشاعر: فضل العماري

رباه جئتُك تائبًا مستغفرا   وسجَدتُ في محرابِ حبّك شاكرا
كفّايَ ترتعشان من خوْفِ الأسى   وجوارحِي تهفو اليْك لتغفرَا
يَسري بروحي ما أظنّ خياله   يدْعو فؤادي أن يميلَ ويسهَرا
كالحلمِ لا ، كالسحْرِ لا ، بل انه   نورٌ من الإيمان بات مسَيطرا
ترنو عيوني للسماء كأنّها   طفلٌ يحدّقُ في أبيهِ مفكّرا
أنتَ الذي خضعَ الأنامُ لحكمه   وبدوْت للروح السليمِ مطهّرا
قلبي يراكَ حقيقةً أزليةً   أبدا سيُطوى سرّها لنْ يظهرا
وبحثتُ في كلّ الجوانبِ تائها   فلمستُ حبّك في الجوانحِ منشرا
أيقنتُ أنك عالمٌ بسريرتي   فيداك تجعلُ كلّ ليل مزهرا
ان كنتُ جاوزتُ الحدودَ بغفلتي   وتركتُ أمْري في السفاهةِ مبحرا
ان كنتُ أعلنتُ الخطيئة سادرا   وجعلتُ رأسي في الترابِ معفّرا
وظننتُ أن العمرَ لحظةُ شارب   فمضيتُ ألهو راقصًا ومصفّرا
فأنا الضعيفُ يرى الحياةَ مجانة   أو ما رأيت الروض يصبح مغفرا
أو ما علمت الكونَ اذ هو ذرّة   فاذا به مثل الشبابِ مصوّرا
أنسيتُ نفسي كيف صرتُ بنطفةٍ   فردا تشوق تارةً وتدبّرا
هل عِشت عمري كالفراشةِ حالما   هل صار لي الرزقُ الحلالُ ميسرا
من قال أن الموتَ يهجرُ مضجعي   ويفرّ عني اذ أقيمُ على الذرا
يا ربما تعفو وتصفَح انني   عاهدتُ نفسي أن أعودَ من السّرى

فضل العماري ـ الدمام

مِن عجائب الكون

أحد النواعير التي تدور بقوة دفع مياه نهر العاصي في سوريا .



بقلم: الأستاذ الراحل خليل الهنداوي



ان مياه الأنهار التي تنساب أحيانا بهدوء ، تعكس جمال السماء ونجومها الصغيرة المتألقة على صفحتها الصافية ، وأحيانا تندفع صاخبة مزبدة ، في مساقط صخرية ، وترابية ، تعد من أروع ما يتحلى به هذا الكون العجيب .

ان حياة نهر ما ، من رأس ينبوعه حتى حدود مصبه ، تمثل كفاحا متواصلا ضد العوائق التي تصده ، والعقبات التي تعترض مسراه .. وتعاقب هذا الكفاح بصورة دائمة يمثل جملة من الجمالات الطبيعية ، سواء في ذلك الكهوف والشلالات ، وأفواه الينابيع .

ان الأنهار الجبارة قد تسوق الى الأرض التي تنساب فيها ، عوامل الخصب والازدهار ، أو عوامل الخراب والدمار .

والانسان يميل الى السكنى على ضفاف الأنهار ، وشطآن البحيرات التي تقدم لــه الغذاء من أسماكها ، والمــاء الخصب لأراضيه التي يزرعها . كما ان الأنهار تشق لــه طرقا مائية ، ومسارب آمنة ، تسمح له بشحن الأثقال والأحمال على سطحها .

وهنالك عدة حضارات أصيلة نشأت على ضفاف الأنهار ، فعلى نهر النيل نشأت الحضارة المصرية ، وعلى نهر الفرات قامت حضارة شعوب هذا الوادي ، وعلى ضفاف نهر « يانج تسي » برزت الحضارة الصينية . كذلك ، نرى أجمل مدن العالم تقوم ، وترتفع ، وتتسع على ضفاف الأنهار .

واستفادة الانسان من الأنهار ، ولّدت آ ثارا فنية رائعة ، كالجسور والمعابر والسدود التي تذود عن القرى والمدن شر الفيضانات العارمة ، والأقنية التي توزع المياه في أنابيب دافقة للسقي والري .

وفي عصرنا الحديث ، نشاهد انشاء مشاريع في البناء ، تفوق روعة ما قدمه الأقدمون في بناء الأهرام والجنائن المعلقة ، من أجل الاستفادة الكاملة والمتواصلة من أمواه الأنهار .

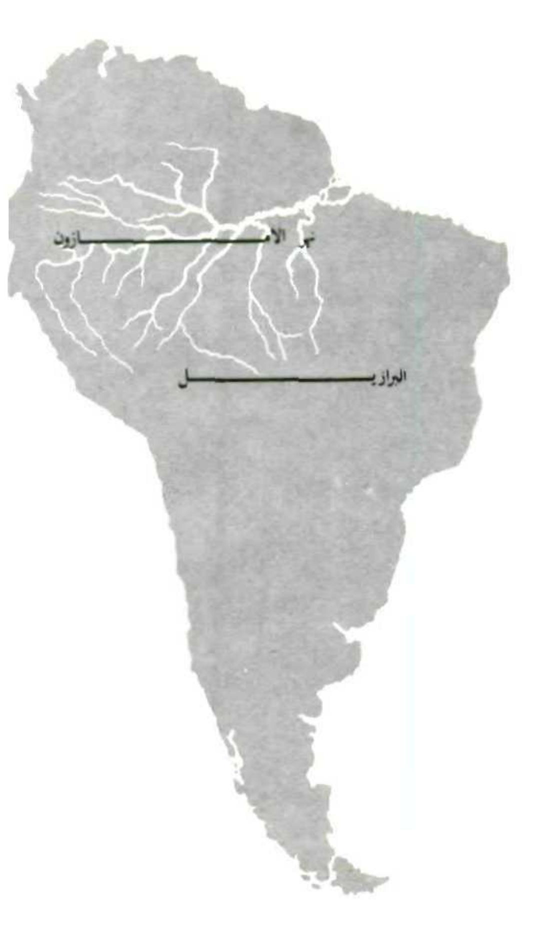
وسيأتي يوم نرى فيه الأنهار العصية ، تنحدر من بحيرة الى بحيرة ، ومن مسقط الى مسقط ، ضمن سلسلة من السدود تنظم مجراها ، توفر الماء للمزارعين ، وتولد الطاقة الكهربائية ، بفضل الشلالات الصناعية . حيث لا تتبدل مجاريها ، كما هو الأمر في « استراليا » اذ نرى النهر ، بدلا من أن ينصب في البحر ، يجتاز جبلا عاليا ، بواسطة أقنية ممدودة تحت الأرض ، تسوقه الى الصحراء لإروائها . ومن هذه الأنهار الشهيرة :

نهـــر الأمـــازون

يعد أعظم أنهار الأرض ، اذ يبلغ عرض مجراه المحاط بجزر متناثرة فيه ٢٠ كيلومترا . وعلى مسافة ٥٠٠ كيلومتر من مجراه الأسفل يشكل هذا النهر شبه ذراع ممدودة في البحر يتراوح عرضها بين ٤ أو ٥ كيلومترات ، ويبلغ متوسط مائه الدافق منه ألف متر مكعب في الثانية الواحدة ، مما يزيد أكثر من خمسة أضعاف على دفقات نهر « المسيسبي » وخمسة وأربعين ضعفا على ما يسكبه نهر « الراين » .

واندفاع هذا النهر تجاه المد البحري يعطي مشهدا جميلا رائعا . ففي المياه المنخفضة ، يتقدم المد حول ٦٠٠ كيلومتر من مجرى النهر ، وفي المياه المرتفعة لا يتجاوز المد عمق المجرى .

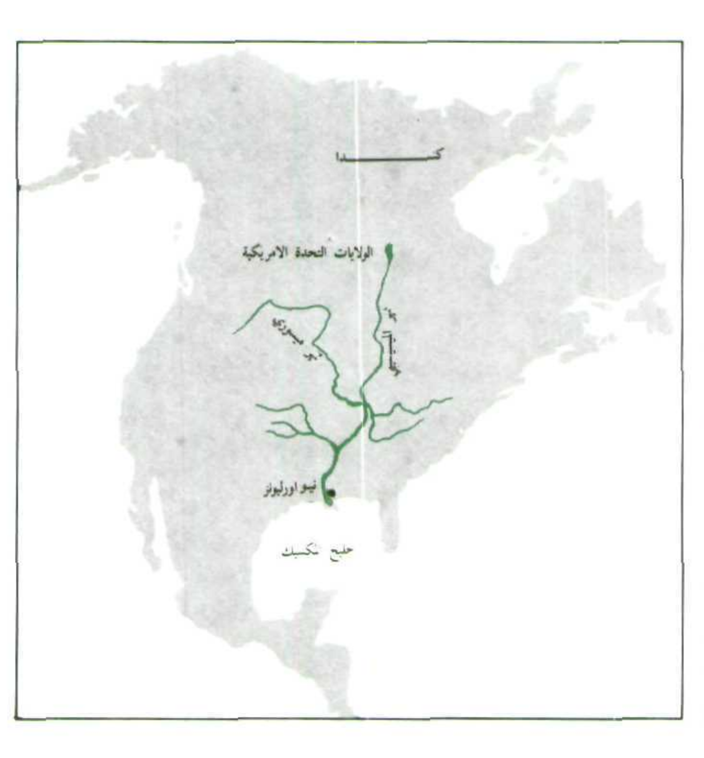
أما سلسلة الأنهار الروافد التي تنحدر فيه ، فلا تزال مجهولة ، على الرغم من أن التصوير الجوي أمكنه تعيينها على الخارطة .



ونهر « الأمازون » الذي هو أوسع أنهار العالم مدى ، اذ يشغل مساحة سبعة ملايين كيلومتر مربع ، يمر ، خلال انسيابه ، بغابات عذراء لا يمكن التسلل اليها ، ويعرّج على ذخيرة بيولوجية ضخمة لم تكتشف ، وصحراء مكتظة بالنبات.

انه ينبع من جبال « الأند » على ارتفاع شاهق ، وينحدر من علو أربعة آلاف متر ، حتى ينفصل عن منابعه بمقدار ٩٠٠ كيلومتر .

انه لنهر عظيم ، دافق ، يتلقى عددا لا يحصى من الروافد التي تمده ، ويبلغ ما يقطعه في هذه الرحلة الطويلة الشاقة « ٥٨٠٠ » كيلومتر . كما ان تدفقه منتظم ، بحكم انسجام الأمواه العالية التي تنصب عليه من الروافد أثناء جريه العادي .



وله جوفان لا يلبثان أن يتحدا في جوف واحد . وفي كل حال ، نجد هذا النهر الوحشي لا يألم مما تألم منه الأنهار المألوفة ، اذ أن شواطئه ليست بجرداء من النبات . وهو ، مذ يبدأ من مجراه ، تحيط بـه الغابات التي تمسك المياه . وتكاد تحبسها ، ثم تمتصها .

وفي واديه الذي يبلغ في بعض مراحلـه ٤٥ كيلومترا عرضا ، تنشأ بحيرات ومستنقعات قديمة مهجورة ، مما ركد فيها من مياه الفيضان ، لأن الناس لم يستطيعوا حبسها بسدود . كذلك نرى مجراه العالي يتقدم بسرعة ٥ كيلومترات في الساعة . وبهذا يكلفه عبور هذا المجرى ، حتى منخفض النهر ، مدة شهرين يقطع فيهما مسافة ألف كيلومتر .

نهر الميسيسيبي

ويقابل نهر الأمازون ، نهر آخر يجري في أمريكا الشمالية ، هو نهر « المسيسيبي » الذي يعد من أطول الشرايين المائية في العالم . يبلغ طوله ٦٨٠٠ كيلومتر . وأكبر روافده نهر « الميسوري » ذو المياه الوحلة العكرة . وحين يلتقي هذا النهران التوأمان الخصمان ، نرى المسيسيبي يحضنه ويجرفـه لأنه أكثر تدفقا وانتظاما .

والمسيسيبي يقذف ، عند مدخل الدلتا ، بعشرين ألف متر مكعب في الثانية . وهو ينبع غير بعيد عن البحيرات الأمريكية الشمالية الرحيبة ، من ربوة جليدية تتخللها البحيرات ، ثم يبدأ انحداره ، حتى يشكل شلالا يبلغ ارتفاعه عشرين مترا ، بالقرب مـن مدينة « ميتا يوليس » .

وينعتون هذا النهر بالحكيم ، لأنه ينتشر في أغنى بلاد العالم صناعة ، وأوسعها زراعة وسط حقول الحنطة والقطن ، ولكن الانسان ، حتى الآن لم يستطع تذليل هذا النهر ، على متابعة انحداره في مجراه ، بصورة منتظمة .

وعلى امتداد مجراه ، مرتفعات ومنخفضات ، تهوي فيها المياه بأصوات مخيفة تشبه هزيم الرعد . وهو في بعض المواضع ، يرتفع مجراه بفضل رواسبه المدخرة ، ثم يغطي المرتفعات التي كوّنها ، منحدرا نحو البرية ، ليبحث عن مرقد جديد .

والانسان — في العصر الحاضر — بدلا من أن يذلل هذا النهر ، عمد الى تركه وشأنه في ثوراته ، وهيجانه ، بغير انتظام .

على ان الأثخان في تقطيع أشجار الغابات ، وتمهيد الطرق الزراعية التي أنهكت الأرض ، قد تركا في وسط أمريكا صحراء جرداء تجرف المياه من أرضها ما تشاء . ومنذ سنين عدة ، ما زالت الأمطار التي تنهمر بغزارة تغمر الأرض وتجعلها غير سالكة . ثم تتعاقب عليها دفعات شديدة من المطر ، بحيث أن أمواج كل جوف من كل نهر ، تنصب في عباب النهر الكبير .

وفي سنة ١٩٢٧ زادت كمية الأمطار ، وارتفع منسوبها فوق المستوى الاعتيادي ، خلال أشهر الشتاء مما زاد في تدفق الماء ، حتى ارتفع النهر مقدار ١٨ مترا ، وعجزت السدود عن كبح جماحه ، فشمل الفيضان مدى ٧٥ ألف كيلومتر مربع .

وفي سبيل حماية الأرض من كوارثه أنشأ سكان ضفافيه خطا منيعا مضاعفا في الأرض ، على طول ثلاثة آلاف كيلومتر . وما يعجز عنه الخط الأول ، يقوم به الخط الثاني . وبذلك قلت التضحية بالأرض .

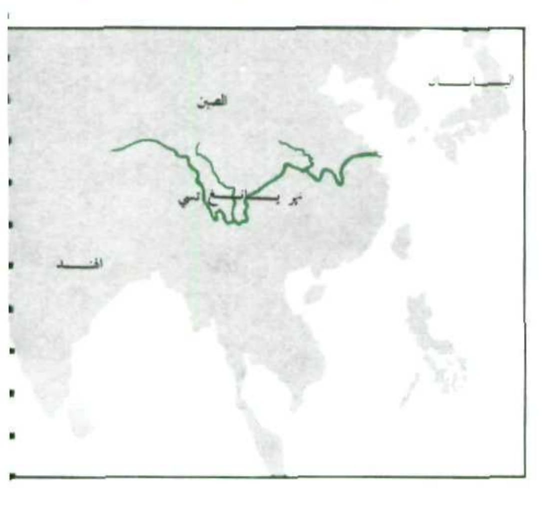
والنهر ، في مجراه المنخفض ، يواصل رحلته حتى البيئة الحارة ، ويروي ما فيها من نبات غني . وعند مصبه ، في خليج المكسيك ، يؤلف دلتا رحيبة يبلغ طولها ٥٠٠ كيلومتر .

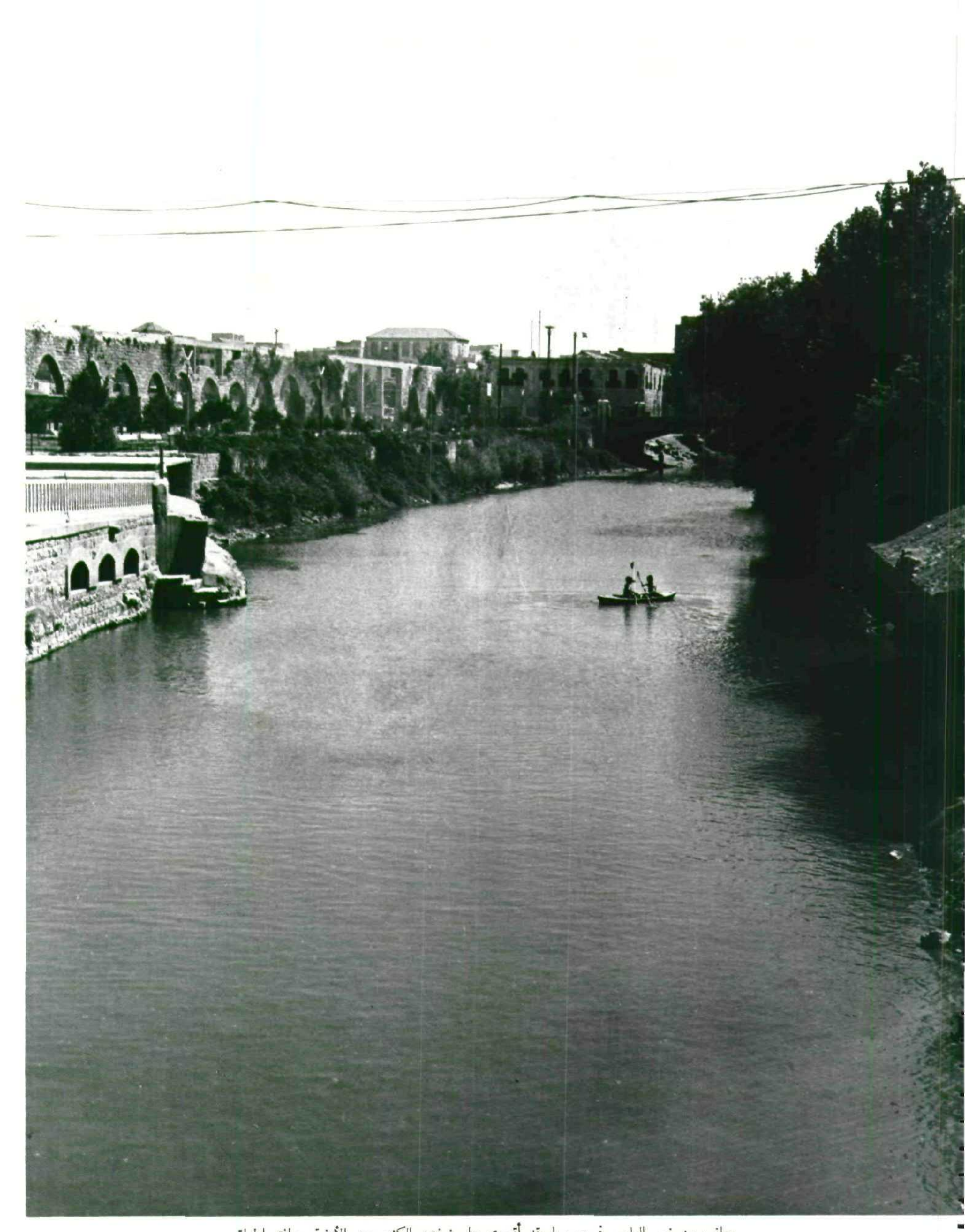
ووراء السدود تقع العين على مشاهد رائعة لبحيرات ، وشواطيء غير مستقرة ، مأهولـة بضفادع ضخمة ، وأفاع مائية ، وغدران ومناقع ذات رائحة آسنة .

نهر يانغ تسي

هنالك ، على مجرى متعرّج ذي ٥٢٠٠ كيلومتر طولا ، نجد نهر « يانغ تسي » أو النهر الأزرق ، ينقل الى المحيط الهادىء ماء « سقف العالم » . انه ينبع من علو ٤٦٠٠ متر في منطقة تكتنفها البحيرات ، ثم يبدأ ينحدر انحدارا عجيبا خلال أخاديد عميقة ، وأودية سحيقة ، ويعرض أحيانا بمقدار ١٥٠ مترا ..

انه يمر بسلسلة جبال منقطعة ، وسفوح مترامية ، ليس فيها الا تجويف عميق يسيل





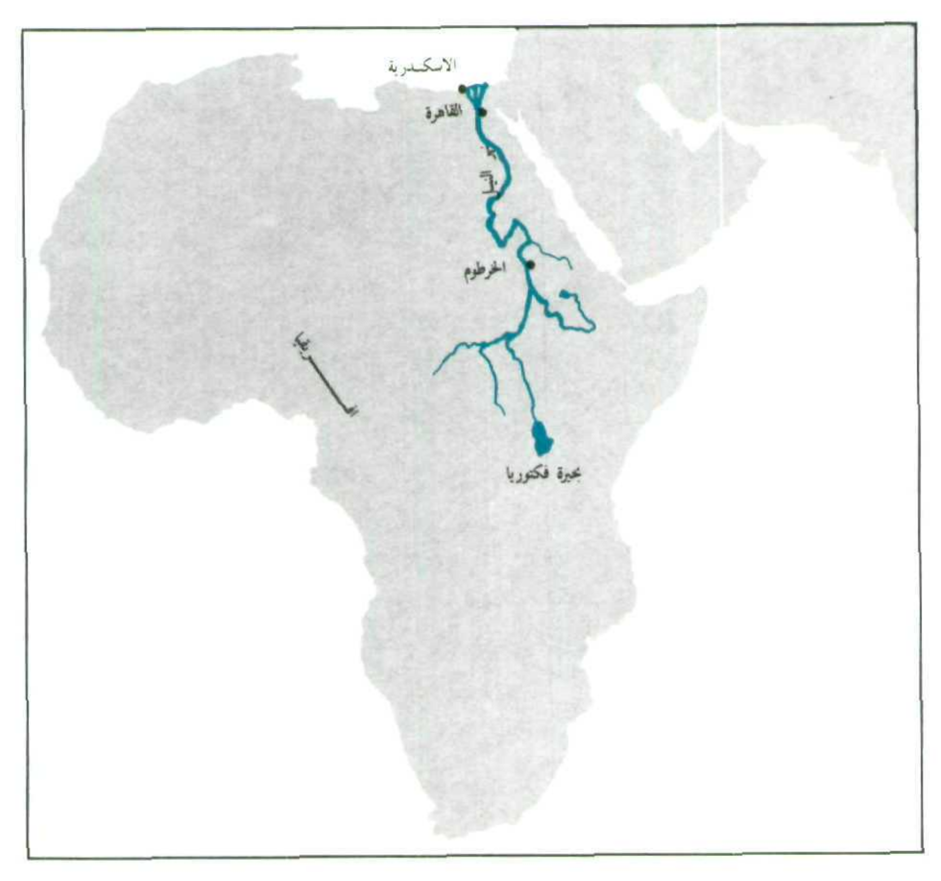
جانب من نهر العاصي في سوريا وقد أقيمت على ضفتيه الكثير من الأبنية ومرافق الحياة .

فيه ، حتى يبلغ أوفر مناطق الصين غنى . ثم يطّرد في مجراه حتى يخط لـــه سيلا آخر يدفعه الى السهول الرحيبة ، مشكلا حوله عوائق صخرية خطرة ومزالق عميقة ، يعسر عليه أحيانا تخطيها بسهولة .

ومعركة الحياة ، في هذه السهول ، قائمة على قدم وساق ، وليس هنالك من سؤال حول القدرة على اجتياز هذه المزالق بالسفن مهما بلغت لأنها تتحطم في تيار الماء المندفع بقوة .

وهو ، عند مجراه المنخفض ، ينشيء خير طريق للولوج في بلد ليس فيه طرق ، والخطوط الحديدية فيه نادرة ...

انه موطن حياة كثيفة بالسكان . وفي هذا المجرى يمخر عدد كبير من السفن فوق عبابه ، وتقوم مجمعات من القرى والمزارع على ضفتيه ، بين جذوع الأشجار الكثيفة ، تتألق فيها الحياة والحركة الدائمة . كما ان هنالك مدنا تجارية ضخمة أقيمت على شاطئيه . وهذا النهر الكبير كسائر المشاهد الرائعة التي ترى في الصين — قد ألهم المصورين والرسامين لوحات غريبة الأشكال والألوان ، توحي الى ناظرها بأنها كأنها من بنات مخيلتهم . لكنهم لم يؤلفوا هذه الصور العجيبة ، شبه الخيالية التي طالما أذهلت الزوار النادرين الذين عبروا النهر الأزرق . تأليفا خياليا . وانما استمدّوها من الواقع الغريب الذي هو أشبه بالخيال.



نهـر النـيـل

وهو النهر الجبار الذي يقطع أفريقيا من الجنوب الى الشمال مجتازا مساحات لا تحد ومؤلفا عوامل عجيبة لا يمكن تصورها . والنيل أكثر الأنهار طولا ، وليس أغزر الأنهار ماء ، وفي هذا سر حياته وحياة ما يبلله من بقاع ، وهو يجوب صحارى وفلوات ، ولا ينال روافد ولا غيثا في شطر كبير من مجراه . وهو على ما يبدده من أدق قواه ، في فنائه على ذلك الوجه ، تبصره مهولا في مصبه . وعلى ما يدل عليه طوله من سدس محيط الأرض تراه أبسط الأنهار شكلا ، فهو يجري من الجنوب الى الشمال توّا ، محدثا عطفة واحدة فقط ، وهو لم ينحرف غير ٤٠٠ كيلومتر من طوله البالغ ٦٦٤٠ كيلومترا .

ويشتمل حوض النيل على أعظم بحيرة ، في نصف الكرة الأرضية الشرقي وعلى أعلى جبال قارته ، وأكبر مدنها . ويعمر ضفاف النيل أكثر طيور النصف الشمالي من الكرة الأرضية .

ولكن أعجب ما في تلك الظاهرات التي تتجلى فيها جمال الطبيعة ، وعمل المخلوقات ، وجهود الناس ، والزراعة والنبات ، والحيوان والأمم وتاريخها « هو انها ما كانت لتوجد لولا النهر » * .

ولنهر النيل مجموعتان من المنابع : بحيرات الهضبة الاستوائية « فيكتوريا ، وألبرت ، وادوارد » ومياه هضبة الحبشة ، وتلتقي مياه المنبعين عند الخرطوم ، يحمل الأولى النيل الأبيض ، والأخرى النيل الأزرق . وهو يفيض في أواخر فصل الصيف بسبب سقوط الأمطار الموسمية ، على هضاب الحبشية ، وقد يكون هذا الفيض عارما ، فاستغلوه بسدود أقاموها عليه ، لتخزين مياهه ، وأهمها خزانات «أسوان» و«السدالعالي».

شـلالات الميـاه الكبرى

وتعد شلالات « نياغارا » في أمريكـــا الشمالية ، دون شك من أروع المشاهد الطبيعية وأجدرها بالتصوير .

« ونياغارا » اسم هندي يعني « رعد السماء » . وتبلغ مساحة دفقاتها عشرة آلاف متر مكعب ، وهي بعرض ٨٢٠٠ متر تثب وثبة واحدة من ارتفاع خمسين مترا ، فيحدث وثوبها صوتا رهيبا يصم الآذان . ومسقط الماء فيها تفصله جزيرة الى شطرين : الشطر الكندي ، الذي يشكل حدوة حصان ، وهو يملك ٩٥ في المائـــة من النهر ، والشطر الأمريكي الذي هو أقل منه شأنا ، وأبهت مشهدا . وبعد هذا السقوط تنقض المياه الصاخبة على واد رحيب سعته ١١ كيلومترا ، حتى تبلغ ضفاف بحيرة « أونتاريو » . وحين تلمس المياه قدم الشلال ، تتوزع منها تيارات جامحة .

وبحسب التسلسل الزمني المعروف ، بالنسبة الى الأزمنة الجيولوجية ، نرى ظاهرة التغير ، في هذه الشلالات ، كانت سريعة جدا ، ومنذ خمسة وعشرين ألف سنة ، كانـــت « النياغارا » على شاطيء بحيرة « أونتاريو » ثم انزاحت ١٠٠ كيلومتر عن مجراها الأصلي السابق.

وهنالك بعض المساقط الأخرى ، في مواضع أخرى ، تستطيع بسهولة أن تنافس « نياغارا » سواء بقوتها ، أو بجمالها . ففي « أفريقيا » نجد شلالات بحيرة « فيكتوريا » التي تنقض على عرض ١٦٠٠ متر من ارتفاع أكثر من ١٠٠ متر في واد عميق ، يبلغ عمق الماء فيه ١٤٠ مترا . وبذلك ترفع — بصورة دائمة — عمودا من البخار ، يحيل الشمس الى ألوان قزح ، وهو ما سماه السكان الأصليون « دخان الرعد » .

ومن عجائب المياه الكهوف التي تكونها الأمطار ، وأمواه الأنهار التي تتسلل في حنايا

* من كتاب النيل « حياة نهـر » ترجمة عادل زعيتر .

مغارة جعيتا في لبنان من مساقط الماء التي تنحت في الصخور على مر العصور .



شلالات « نياغارا » وهي تعتبر من أكبر شلالات الماء في العالم .

الأرض ، وتعمل على توسيع أخاديدها ، مفتته الصخور . وقليلا قليلا ، يتكوّن مجرى أرضي لهذا ، الأمطار ، لا تقع عليه العيون .

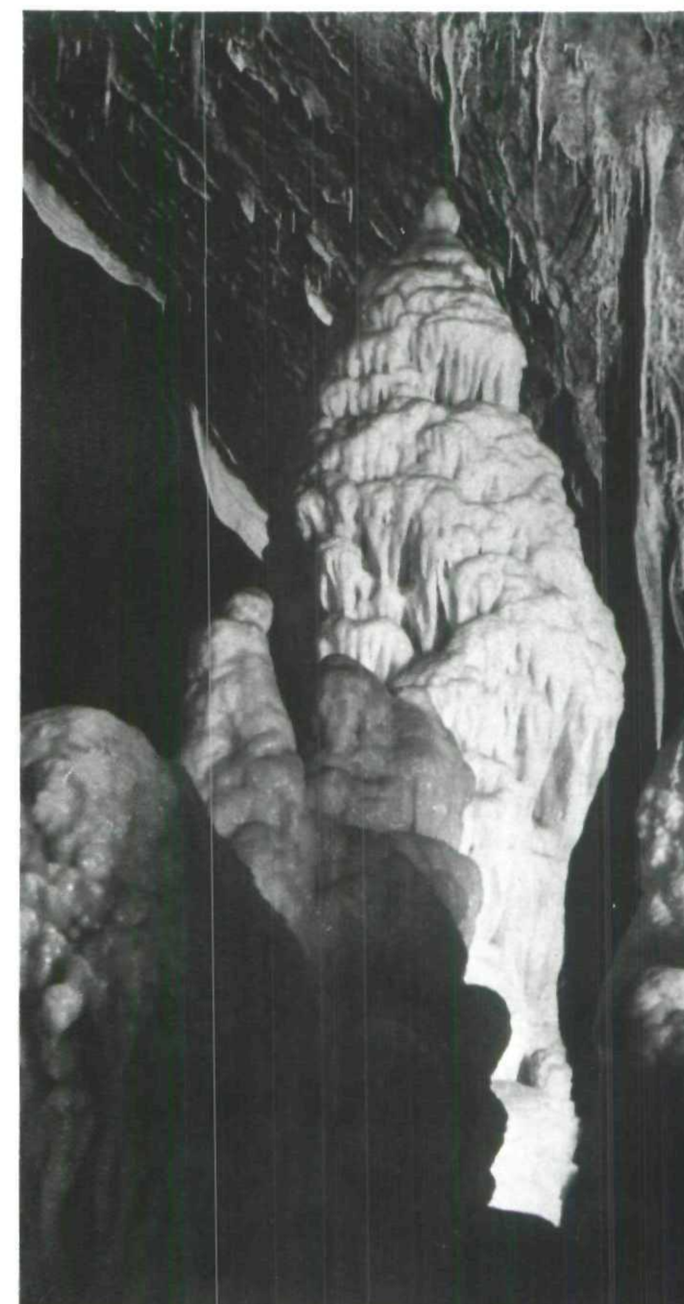
وكم من أنهار اختفت من الوجود ، وغارت في أحشاء الأرض ، وكهوفها ، ومساربها . ولعل أرحب هذه الكهوف ، ما نراه في أرض المكسيك الجديدة ، فان نهرا خطّ لمجراه سلسلة من الأخاديد الواسعة ، مرصعة بما تحجر من الماء ، على كر العصور ، مكسوّة في بعض المواضع بالمرمر ، والذرات البلورية . ومن أروع هذه المشاهد المتحجرة تلك القبة العملاقة التي تكوّنت منذ ستين مليون سنة .

على أن مجموع هذه الكهوف المتناثرة التي استحالت الى متاحف طبيعية ، لم يتم إحصاء عددها حتى اليوم . وفي كل مساء تخرج منها ملايين الخفافيش لتحلق في الجو مـــدة ساعتين ، أو ثلاث ساعات ، حين تخرج للبحث عن أقواتها وغذائها .

ويجدر بنا في هذا المقام أن نذكر مغارة « جعيتا » في لبـــنان ، التي تغمرها بحيرتان ، احداهما فوق الأخرى ، والمتنزه في مساربها المضاءة بالكهرباء ، ينطلق الى داخلها على زورق يطوف في الماء ، وهو لا يشعر الا بأنه داخل كهف عجيب يتألق بالمرمر المائي الضارب الى الصفرة ، كأن ما تناثر عليه شموع أو ثريات .

ومـــن الكهوف القديمة كهوف « هان سورليس » في بلجيكا ، اكتشفها لأول مرة سنة ١٨١٤ أربعة فتية شجعان ، كانت عدتهم المشاعل ، وقد استخدموا في رحلتهم تحت الأرض طريقة « المخلوق الابتدائي » الذي كان

١



٢

يترك وراءه آثارا من الدقيق ، لتحفظ لـه طريق العودة . ويبلغ طول هذه الكهوف ٣٠ كيلومترا ، وأجمل ما فيها تلك القبة التي يبلغ طولها ١٥٠مترا وعرضها ١٤٠ مترا وارتفاعهـا ٢٠٠ مـتر . وفي قرارة أحـد كهوفهـا بحيرة صغيرة .

وأعجب من ذلك مغارة في « زيلاندة الجديدة » تعتمد في الاضاءة على تنوير طبيعي بما تشبه جدرانها المرصعة بملايين الذرات البلورية التي تعكس نورا بهيجا .

اليـنابيـع

ثم تفنن الانسان البستاني والمهندس في اصطناع النوافير الصناعية ، التي لاحظوها في الطبيعة ، وألفوها تبعا لأهوائهم ، ليزينوا بها عالم حدائقهم . ولعل من اشهر هذه النوافير نافورة قصر « فرساي » التي تشكل مشهدا رائعا في صعودها وهبوطها ، وفي الليل ، تداعبها انوار كهربائية مختلفة الألوان ، فاذا هي زهرة مجنحة ولكنها من ماء .

تلك هي آيات الله في الطبيعة وفي هذا الكون العجيب ، وما كان الانسان ليهتدي الى هذا لولا أن هداه الله ●

١ – منظر لاحد التشكيلات الرائعه التي تتكون منها مغارة جعيتا العليا .

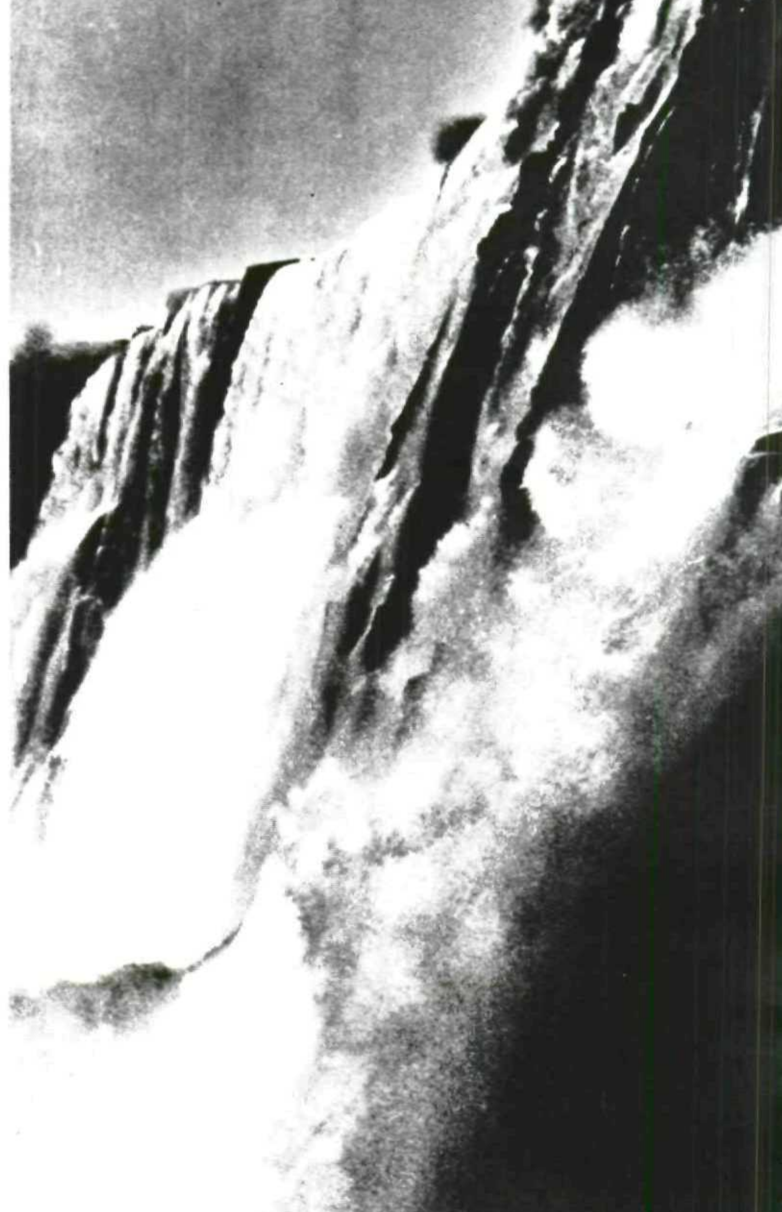
٢ – شلالات « مورشيزون » وتقع على ذراع من أذرع نهر النيل الجاري من بحيرة فكتوريا .

٣ – شلالات فكتوريا على نهر « زامبز » في روديسيا ، وهي تمثل مشهدا رائعا لأضخم نهر يبلغ عرضه ١٦٠٠ متر .

٤ – جانب من نهر « الغانج » المقدس الـذي يخترق مدينة « نبيارس » الهندية .

٤

٣



المؤلفات العربية بين

بقلم: الأستاذ محمد عبد الغني حسن

إذا كان عنوان الكتاب ضروريا لـه لأن الكتاب لا يعرف بغير عنوانه، ولا يستدل عليه بدون اسمه، فان مقدمة الكتاب لا تقل عن العنوان أهمية، ولا تنقص عنه ضرورة، لأنها تكشف عما في الكتاب من أغراض، ولأنها تفتح مغالقه أمام القارىء، ولأنها تبين منهج المؤلف في تأليفه، وتفصح عن خطته في تصنيفه، كما انها تكشف عن السبب في تأليف الكتاب. وهل هو من وحي المؤلف أصالة وابتداء، أم هو من إيحاء غيره كما تكشف عن المناسبة التي دعت اليه، وعن الضرورة التي اقتضت تأليفه.

واذا كان للمقدمة هذه الأهمية، وهذا الشأن، فاننا نجد مع ذلك أن كتبا عربية في القديم والحديث قد ظهرت بدون مقدمات، وأن أصحابها وناسجي بردتها قد دخلوا بها على القارىء من غير تقديم. وأغلب ما يكون ذلك في الكتب التي تعتمد على رواية الأخبار بالأسانيد، مثل كتاب «فتوح البلدان»، وكتاب «أنساب الأشراف» للبلاذري، وكتاب «الطبقات» لابن سعد، وكتاب «الأخبار الطوال» للدينوري وكتاب «المعاني» الكبير لابن قتيبة، وكتاب «لباب الآداب» لأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤هـ. فهذه الكتب تدخل على قارئها دخولا مباشرا بدون تقديم وكأنها جعلت من أول فصل فيها مسلكا الى نفس القارىء، مع أننا نجد من أصحابها رجلا مثل ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ، والذي لم يفته أن يصنع لمؤلفاته مقدمات طويلة أو بالغة الحد في الطول، كالذي صنعه في كتابه «الشعر والشعراء» و«أدب الكاتب»، و«عيون الأخبار» الذي طالت مقدمته حتى بلغت بضع عشرة صفحة.

وما دمنا قد ذكرنا هنا طائفة من المؤلفات القديمة التي أصدرها أصحابها بلا مقدمات، فان طائفة من الكتب الحديثة والمعاصرة قد نهج مؤلفوها هذا المنهج فلم يكتبوا لها مقدمات، ولم يفتتحوها بتوطئة تدل على التمهيد لها، كالذي صنعه المرحوم عباس محمود العقاد في كتابه «عبقرية خالد» وكالذي صنعه المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه «الامام الشافعي» والدكتور الجراحي محمد كامل حسين في كتابه «متنوعات» والمرحوم الدكتور محمد يوسف موسى في كتابه عن ابن رشد الفيلسوف.

وتختلف المقدمات الموضوعة للمصنفات العربية كما وكيفا. فقد تطول المقدمة لكتاب معين حتى تبلغ في ذاتها كتابا آخر قائما بنفسه، كالذي فعله مؤرخنا العبقري عبد الرحمن بن خلدون، في تقديمه لكتابه المطول في التاريخ المسمى باسم «العبر، وديوان المبتدأ والخبر» فقد أطال ابن خلدون النفس في مقدمة كتابه، حتى صارت «المقدمة» كتابا مستقلا اشتهر بين العلماء والباحثين، شرقيين وغربيين باسم مقدمة ابن خلدون.

وعلى حين نجد مقدمة لكتاب في التاريخ بلغت هذا الحد من الضخامة والطول والشمول، فاننا نجد لبعض الكتب العربية مقدمات وجيزة غاية في الإيجاز، كالذي صنعه ابن رجب الحنبلي في مقدمته للذيل على كتاب «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلي. فقد بلغت مقدمة ابن رجب المتوفى سنة ٧٩٥هـ خمسة أسطر لا تزيد، على حين أطال ابن أبي يعلي في مقدمة كتابه عن طبقات الحنابلة. وكذلك فعل الامام الحافظ المؤرخ ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ في مقدمة كتابه المشهور «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» فانها لا تزيد على صفحة من حجم كتابه المطبوع في حيدر آباد الدكن سنة ١٣٤٨هـ. وقد اكتفى فيها بذكر مصادره التي نقل عنها، وأخذ منها كما سنذكر بعد.

ويميل بعض المؤلفين القدامى الى الاسهاب في مقدماتهم، والافاضة فيها وعلى رأسهم ابن قتيبة، فقد صنع لكتابه «أدب الكاتب» مقدمة طويلة بلغت عشرين صفحة من حجم كتابه المطبوع بالقاهرة بتحقيق المرحوم الشيخ محمد يحيى الدين عبد الحميد. وهي مقدمة طريفة مفيدة، فيها توجيهات للأديب الشادي وكيف يستكمل عدته، ويحكم أدوات كتابته. أما مقدمته لكتابه «عيون الأخبار» فقد جرت أيضا على منهجه في الاطالة والاسهاب، وقد علل فيها للجمع في كتابه بين خيري الدنيا والآخرة، ففيه ورع وزهد ودين، وفيه فكاهات ومضاحك ومزاح يفيد الطباع المكدودة بالجد، ويكسبها راحة، وشبه كتابه بمائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين، وصرح في المقدمة بافصاحه أحيانا بذكـر العورات، وأن ذلك ليس بمأثم، (وانما المأثم في شتم الأعراض، وقول الزور، والكذب،

المقدمات وذكر المصادر

وأكل لحوم الناس بالغيب) . ومن هنا كان ابن قتيبة رائدا من رواد « الأدب المكشوف » حذا فيه حذوه من بعده مؤلفون من مثل العاملي صاحب « الكشكول » و « المخلاة » والأبشيهي صاحب كتاب « المستطرف في كل فن مستظرف» والغزولي صاحب « مطالع البدور » .

وكثيرا ما يعرض المؤلفون في مقدمات كتبهم للأسباب التي دفعتهم الى التأليف ، وقد يكون السبب إيعازا من ملك ، او ايحاء من امير ، او اشارة من كبير . وللملوك العرب والإسلام في هذا فضل لا ينكر وقد يصرح المؤلف في مقدمة كتابه باسم الأمير الذي أشار بالكتب أو أوصى بتأليفه ، أو قدم اليه من المؤلف على سبيل العرفان والشكران . على أنه — في بعض الأحيان — قد يغفل المؤلف التصريح باسم من أمر بالكتاب أو ألف له ، كالذي فعله المؤرخ كمال الدين بن النديم المتوفى سنة ٦٦١هـ في مقدمة كتابه « زبدة الحلب ، في تاريخ حلب » الذي طبعه المعهد الفرنسي في دمشق بتحقيق المرحوم الدكتور محمد سامي الدهان ، فقد قال في المقدمة بدون تصريح : (... وبعد : فان بعض من يتعين عليّ امتثال أمره ، ويجب عليّ الانقياد الى موالاته وبره ، التمس مني تعليق ما وقع اليّ من ذكر أمراء حلب وولاتها ...) .

واذا كانت اشارات الملوك والأمراء ممن لا تسع مخالفتهم — هي السبب الذي يذكره بعض المؤلفين لتأليف كتبهم ، فاننا نجد مؤرخا كأبي القاسم حمزة السهمي صاحب كتاب « تاريخ جرجان — أو كتاب معرفة علماء أهل جرجان — والمتوفى سنة ٤٢٧هـ يذكر في مقدمة كتابه هذا المطبوع بحيدر أباد الدكن بالهند سنة ١٩٥٠م انه وجد كثيرا من البلدان قد تعصب لها أهلها وأظهروا مفاخرها بدخول الصحابة فيها ، وظهور العلماء من بين أهلها ، وألفوا في ذلك الكتب وصنفوا المصنفات ، ولم ير أحدا من مشايخه صنف في ذكر علماء جرجان تصنيفا ، أو أرخ لهم تاريخا ، على كثرة علمائها ، ووفرة فضلائها ... فدخل هذا الميدان ، وصنف كتابه عن تاريخ جرجان .

وتوحي هذه الاشارة بأن المؤرخ « السهمي » عرف الحاجة الى كتاب في تاريخ جرجان وعلمائها كما فعل المؤلفون في تواريخ البلدان . وهذا النظر يدل على تفطن الكاتب والمؤلف لحاجات عصره ، ومطالب وقته ، ومحاولة سد كل نقص في هذا الباب ...

وتظهر في مقدمات الكتب أخلاق المؤلفين وطبائعهم ، واذا كانوا هم لا يفطنون الى عيوبهم التي تشي بها مقدمات كتبهم ، فان هذه المقدمات تبقى بعدهم شاهدا عليهم ، ودليلا على محاسنهم أو مساوئهم . ففي بعض المؤلفين تواضع وعرفان لاقدار نفوسهم الحقيقة تكشف عنه مقدمات كتبهم أو في بعضهم غرور ومخيلة واعتداد بالنفس الى حد قليل أو كثير . ومن المؤلفين المتواضعين : محمد المحبي صاحب كتاب « خلاصة الاثر ، في أعيان القرن الحادي عشر » وما أجمله وهو يقول في مقدمة كتابه هذا المطبوع بالمطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٨٤هـ «وما أقدمني على هذا الشأن ، الا تخلف أبناء الزمان، عن احراز خصل الفضل في هذا الميدان :

لعمر أبيك ما نسب المعلى
الى كرم ، وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد اذا تعرّت
وصوح نبتها رعي الهشيم

فأنا ذلك الهشيم الذي سد مسد الكريم...» وهذا غاية في التواضع وإنكار الذات ..

أما المؤلفون الذين ركب رأسهم الغرور فعلى رأسهم ضياء الدين بن الأثير الموصلي المتوفى سنة ٦٣٧هـ ، وصاحب كتاب « المثل السائر » المشهور . فقد غالى في مقدمة كتابه هذا بقدر نفسه ، وجرى على عادته في الفخر كقوله : «وهداني الله لابتداع أشياء لم تكن من قبلي مبتدعة ، ومنحني درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تابعة وانما هي متبعة .. » ثم عاد بعد أسطر من هذا الى المغالاة بالنفس وبالكتاب قائلا : «... ان هذا الكتاب بديع في اغرابه ، وليس له صاحب في الكتب فيقال انه من أخدانه أو من أترابه ، مفرد بين أصحابه.» وكأن الرجل أدرك أنه غالى بنفسه ، فقال بعقب ذلك «ومع هذا فاني أتيت بظاهر العلم دون خافيه ، وحمت حول حماه ولم أقع فيه...» .

والحق أن اعجاب ابن الأثير بنفسه وبعلمه قد استثقل من كثير من الأدباء والباحثين ، حتى وجدنا أديبا شاعرا ذواقة مثل صلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ يؤلف كتابا عنوانه « نصرة الثائر على المثل السائر» يرد فيه على

دعاوى ابن الأثير العريضة ، ويقول في مقدمته «لأنه – يعني ابن الأثير – أفنى ذلك البسط في الاعجاب بنفسه والاطراء ، وأطال في الغض من أبناء جنسه والازدراء ، وظن أن الله قد حرم الفصاحة على من يأتي من بعده ، وان الذين من قبله اما شيخ قد خرف في هرمه واما طفل يعبث في مهده... » .

وتفتتح مقدمات الكتب غالبا بحمد الله والصلاة على نبيه ، وكان المؤلفون يتحرون الايجاز في ذلك بدون حشو أو زخرف أو تكلف ، الى أن جاء المتأخرون فرأينا مؤلفا كالمحبي صاحب « خلاصة الأثر » يطيل ويزخرف في التحميد والصلاة على النبي مع الميل الى استعمال المحسنات البديعية ، وخاصة السجع .

وفي الكتب التي فيها اعلام ، كمعاجم الرجال والطبقات وغيرها ، نرى المؤلف في المقدمة يذكر بيان ترتيب الأعلام ، كالذي صنعه صاحب طبقات الحنابلة ، وكالذي فعله المحبي في خلاصة الاثر حيث وضح منهجه ومصطلحه في ترتيب الأسماء ، وكالذي صنعه الأستاذ خير الدين الزركلي في معجمه «الأعلام» حيث يقول في المقدمة : « ورتبته على الحروف مبتدئا بحرف الاسم الأول ، ثم بضم ما يليه اليه ، فيكون آدم قبل آمنة لتقدم الدال الميم ، وآمنة قبل ابراهيم ، لألفين في بدء الأول ومحمد قبل محمود لسبق الدال الواو ، وابراهيم ابن أحمد قبل ابراهيم بن أدهم لتقدم الحاء الدال في اسمي الأبوين ، وهكذا ... » .

وقد نرى في الكتب التي تلخص كتبا مطولة وتختصرها أن المؤلف المختصر يميل في مقدمة كتابه الى التنقيص من قدر الكتاب المختصر ، حتى يبدو أنه خلص الكتاب من عيوب فيه ، على حين يشيد بعض الموجزين بقيم المطولات التي أوجزوها . وممن سلك الطريق الأول صفي الدين بن عبدالحق البغدادي المتوفى سنة ٧٣٩هـ حين اختصر كتاب « معجم البلدان » لياقوت الحموي في كتاب موجز عنوانه : « مراصد الاطلاع ، في أسماء الأمكنة والبقاع » فقد صرح في المقدمة بأن معجم ياقوت « مملوء بالفضول الذي لا حاجة اليه ، والخارج عن الغرض كالاشتقاقات التي ذكرها في كثير من الأسماء عربية أو أعجمية» وزعم أن طريقة ياقوت الحموي في الاطالة والفضل قد أتعبت الناظر ، وأملت الكاتب ، وعسر بذلك تحصيل الكتاب على الطالب.... .

ونرى بعض المؤلفين العرب يلجأ الى ذكر المصادر والمراجع التي رجعوا اليها ، واعتمدوا عليها في التأليف . وكان ذلك على قلة بين قدامى المؤلفين . وبالطبع قد حداهم الانصاف وأمانة العلم الى ذكر مصادرهم . كالذي فعله المؤرخ ابن حجر في مقدمة كتابه « الدرر الكامنة » فقد ذكر فيها عددا من المراجع التي زودته بالمادة العلمية في الكتاب . وكذلك فعل المؤرخ العالم اللغوي السيوطي في كتابه « بغية الوعاة » الذي ترجم فيه لمئات من النحاة واللغويين . وقد زاد المؤلفون المحدثون والمعاصرون من ذكر المصادر زيادة تلفت النظر كما نجده في كتاب « عصر المأمون » للدكتور أحمد فريد رفاعي ، وكتاب « مصادر الدراسة الأدبية » للأستاذ يوسف أسعد داغر ، وكتاب « أدب السياسة في العصر الأموي » للدكتور أحمد الحوفي ، وكتاب « التيارات المعاصرة في النقد الأدبي » للدكتور بدوي طبانة .

والآن يضع المؤلفون المعاصرون أسماء مصادرهم ومراجعهم في مقدمات كتبهم غالبا ، ولكنهم يضعونها مستقلة في ثبت خاص بها في أول الكتاب أو في آخره على السواء . الا أن بعض المؤلفين اليوم يضع المصادر والمراجع الخاصة بكل فصل من الكتاب في خاتمة الفصل ، كما نجده في كتاب « الأدب المصري القديم » للمؤرخ الدكتور سليم حسن مكتشف الهرم الرابع بالجيزة ، وكتاب « الحملة الفرنسية » للدكتور فؤاد محمد شكري ، وقد تأثرا في هذا المجال ببعض الكتب الأجنبية المعاصرة .

ولا شك أن ذكر المصادر والمراجع ضروري للقارئين والباحثين الذين يحبون أن يطلعوا على النصوص الأصلية في أصولها ، على شرط أن لا يكون ذكرها على سبيل المباهاة بكثرة الاطلاع ، والتكثر من قراءة الكتب ●

محمد عبد الغني حسن ـ القاهرة

محمد الأسمر



بقلم: أبي طالب زيان

عرفت الأدب عن طريق أربعة : العقاد ، والأسمر ، والزين ، والقاياتي ، والتقيت بهم جميعا في عصر واحد ، وفي سنين متقاربة ، تداخل بعضها بحكم الاتصالات الأدبية ، وتفرق بعضها الآخر بأحكام ، كان أيسرها ، بُعد الأمكنة ، والعيش داخل اطار محدود ، وفي نزل متواضع ، يشافه سور القاهرة القديم ، كما رسم الشيخ القاياتي لحياته الطويلة ، أو رسمت لـه الأقدار أو كان ذلك بحكم الوراثة لبيته الذي قبع تحت سور قديم ..

أما العقاد ، فقد كانت اتصالاته ومجالسه في الصحف التي عمل بها ، أو النوادي التي اتخذها ملتقى لأصدقائه ومحبيه ، أو منزلـه فيما بعد ذلك ، أعرف من أن يجهلها أديب ، أو يسأل عنها زائر ، يروم الأدب ويبتغي اللقيا بأعيان الأدب ، أو طلابه على السواء .

أما الأسمر ، فقد كان يعمل ، الى أن انتقل الى جوار الله ، منذ نيف وعشرين عاما ، بمكتبة الأزهر . يذهب اليها ، « على حسب مزاجه » ، وان كان لا يعرف من أمرها ، الا العكوف على مطالعاته ، التي ندّت منه في أمسه ، أو لم يتوافر عليها ، بحكم زائر ، أو قضاء وقت ، خارج اطار منزله ، في حقل أو متنزه ، وهو ما كان يسعى اليه غالبا ، خوف كلاله من المطالعة ، وبغية التسريـة المحبوبـة ..

والأسمر غالبا ، ما كان يذهب الى « نادي الحلمية » ، كلما دعاه الداعي الى اللقـاء بصحابته : الزين ، والهراوي ، والقاياتي ، وزكي مبارك ، أو صفوة مختارة من أولئك الشعراء والأدباء ، الذين كانوا يثرون ذلك المنتدى باللقاء ، حتى عرف بنادي الأدباء ، وان تهدمت بناياته بعد ذلك ، واستعمل استعمالا على غير ما عرف بـه ، أو اتخذ من أجله .

كان ايثاري « الأسمر » ، رحمه الله ، بالملازمة والصحبة ، دون سائر الرواد ، لاصلاحه ما أكتب ومعالجته السليمة ، واصطحابه اياي في كل زياراته لندوة الراحل الفيلسوف الشيخ : مصطفى عبد الرازق ، واجلاسه لي حيث يطيب له أن يجلس ، حتى انه كان يأخذ رأيي ، وأنا خجل ، في كثير من البحوث التي يتناولها رواد هذا البيت الكبير ، وكان يثلج صدر الشيخ ، رحمه الله ، أن يدفع إليّ ، وأنا أهم بمغادرة المكان ، بكتاب للنظر فيه ، وتسجيل رأيي ، للاسترشاد ، كما كان يزعم ، بل ّ الله ثراه .

على أن اللمسة الأخيرة التي كنت أخرج منها بعد كل بحث ، تلك المناقشة التوجيهية ، وسط ذلك العباب من الأساتذة الذين كانوا ينصتون لتوجيه الأسئلة ، ويرضون بالحكم الذي كان يصدره الراحـل الفيلسوف ..

ويعلم الله ، انه كانت تنتابني أعراض « الزوغان » بعد تلك الجلسات التي كانت أشبه باختبار قاس ، يفرض علي ، ولا أستطيع

التعلة أو الاعتذار ، وبخاصة اذا كنت قد أخذت نفسي ، بأن أكون في ركاب هؤلاء الأساتذة ، وعلى ملتقى أنظارهم ، في كل ما أقرأ أو أكتب ، أو أشارك ، وفي كل ذلك ، ما كان « الأسمر » الشيخ ، يضن عليّ بالرأي أو الكتاب ، حتى كانت المكتبة « الرازقية » تحت يدي في كل وقت ،حضر صاحب الدار ، أو ذهب الى درسه بالجامعة ، أو مكتبه بمشيخة الأزهر ..

غير أن الأيام قد مضت على غير ما أود ، ويحب هؤلاء الشيوخ .. فقد تفرق الجمع . وتشتت الشمل ، ولم يعد من بقي منهم ، يبحث عن مجمع يضم شتيتهم ، ويؤوي متفرقهم ، وان كنت قد آثرت ألا أنفك عن الملازمة الحبيبة ، والصحبة الطيبة للشيخ : الأسمر ، وسماع ما ينظمه أو يرسله من آراء ، ناقدا حينا ، ومثنيا حينا آخر ، وهو حفي بهذه المشاركة ، فخور بهذا التوجيه الذي أثمر تياه بنقدي ، غضوب إن أنا انصرفت عنه ، أو غضضت الطرف ، وتغافلت عن قصيده ، الذي كان يحلو له ترداده قبل دفعه الى المطبعة ، ومطالعات الأدباء اياه .

ولقد علمني ، رحمه الله ، المشاركة على خيرها ، ورسم لي طريقها ، وأبان لي فائدتها الى آخر يوم في حياته ، وهو يعد ديوانه : « بين الأعاصير » الذي تركه من بعده ، دون أن يراه منشورا ، أو يمتع ناظريه به ، وهو يأخذ مكانه في قلوب الصحاب .

كانت المشاركة الأدبية ، في رأي «الأسمر» طرح الموضوع ، أو تناول الفكرة ، والإلمام بكل ما يدور ، أو يقال حولها ، حتى اذا اجتمعت الآراء على شيء ، كان له أن يتناوله ، دون نكوص أو اهمال ، لعلمه بالاجماع ، واقتناعه بصواب الرأي ، وان كانت المشاركة مما يعاب ، أو موضع مؤاخذة في كثير من الأحيان .

لذلك كان ديوان « بين الأعاصير » مشاركات وجدانية واخوانية بحتة ، شارك فيها الشاعر : بقلبه ولسانه ، جل أصدقائه الذين شاطروه الحياة ، وان أغفل منها كثيرا ، مما شكّل آثارا جليلة في حياته ، وطبعه بطابع جميل ، كان يسعى اليه الشاعر دائما ، وهو الحب ، الذي برزت نبضاته من خلال قصائده في هذه المجموعة الضخمة ، وان كنت أنا شخصيا ، أرى أن حذف أكثر هذه المشاركات قد جاء نتيجة لطبع الديوان بعد وفاة صاحبه ، أو لعدم استحسان المشرفين على طباعته ، باحتفال الشاعر الكثير بهذه الأخوانيات التي قعد لها جل وقته ، ولهث وراءها ، حتى كان يدفعه حبه ، الى أن يسهر الليل بطوله ، لإكمال قصيدة ، قال مطلعها الشيخ ، « الصبان » ، في ندوته الأدبية بمصر الجديدة ، ويثلج صدره ، أن يلحق به ، في أرض « المطار » ، ليدفع اليه القصيدة كاملة ، قبل أن يطير الشيخ ، رحمه الله ، في بواكير الصباح الى الحجاز .

والأمر الذي لا يختلف عليه ، أو يتطرق اليه الشك ، هذه الانطباعات التي درج عليها الشيخ : الأسمر ، في كل هذه الأغاريد العذبة التي امتلأ قلبه بها ، قبل أن يرسلها على القرطاس ، فياضة ، حبيبة ، زاكية .

وفي قصائد « الاخوانيات » ، ما يُغني عن ضرب المثل ، أو اقامة الدليل .

فالشاعر حين يُحيّي الأستاذ : محمد علي الطاهر ، أو الأستاذ : الماحي ، أو يكتب الى الأديب العراقي : ابراهيم الواعظ ، أو مهدي رفيع مشكي ، أو الدكتور : عبد المنعم صبحي ، أو اللواء : صالح حرب ، أو علي علوبة ، يجعل الحب ، هو العماد الذي تدور عليه المشاركة ، ويسير على طريق مرسومة ، عبّدها بقلبه ، وخططها بوداده ..

أهدى الشاعر ديوانه الكبير الذي نشره في حياته ، قبل أن يلم « بين الأعاصير » ، الى صديقه : الواعظ فأرسل اليه بقصيدة يشكره فيها وقد ضمنها أسماء بحور الشعر ، فأجابه الأسمر :

يا « محيطا » أهدى إليّ « بحورا »
هي من حسنها تموج رحيقا
أنا في لجها أغوص وأطفو
غمرتي ولست فيها مفيقا
يا أخي بالعراق أدرك على
مصر أخا كاد أن يكون غريقا

كما يقول الشاعر لرفيع مشكي :



« رفيـع » كـرم الله
بـه « مصر » و « ايرانا »
عظيم مـن بني الفرس
عظيـم بيـننـا شانا
فمـن يسعـد بلقيـاه
يقـل لاقيت سلطانـا

و « الأسمر » الذي جنح بكلّـه الى « الأخوانيات » ، حتى حسبه القارىء لـه ، يغوص في المناسبة ، ويعيش مع تيارها ، يبدأ في : « الشمس » و « قصة الانسان » و « راسبوتين » و « العفريت الشاعر » و « العصفور الصغير » و « دنياي » و « أين الهدوء » و « المأوى » و « بين العقل والباطن » و « صوت من القبور » و « بعد الخامسة والخمسين » و « حول المقادير » و « الله أكبر » و « العين » و « تغريدة الصباح » ، يلفت النظر ، ويشدّ الانتباه .. فالشاعر ينظر الى « الشمس » ، نظرة تختلف كل الاختلاف عن نظرات الشعراء ، فهي في رأيه ، قد غزلت من لجة البحر هذا البخار الذي يتصاعد في هدوء ، ثم تذهب لتنسج هذا الغزل سحابا ، حتى يبدو عجيبا ، وان كان هذا النسج يتكرر كل يوم :

غزلت مـن لجة البحر بخارا
صاعـدا كان على الأرض عبابا
غزلته في هدوء ثـم راحـت
في هدوء تنسج الغـزل سحابـا
غزلتـه ، نسجته ، لونتـه
فبدا في أفقـه شيئا عجابـا
كـل يوم تصنع الشمس لهـا
مـن عبـاب البحر غزلا وثيابـا

ولا يقلّ الشاعر في نظرته الى الحياة الهادئة عن نظرته الى دنياه ، حين يعاتبها ، وينشد منها الهدوء ، وبخاصة انه آثر أن تكون دنياه بيته ، وصديقه كتابه :

عاتبتهـا حتى مللـت عتابـي
دنيا برمت بهـا وبالأصحاب
حتى هوى الأحبـاب أصبح زاويا
عندي عشية غاض ماء شبابي
فالآن بعد أن انتهى عهـد مضى
دنياي بيتي ، والصديق كتابـي

والذي يتتبع لمسات الأسمر ، يرى ألوانا جديدة من الشعر ، ارتضاها الشاعر ، فكان منها هذا اللون الوعظي الذي رسم به ما تجري بـه الحياة ، وما يدور في فلكها ، فيفيض شعاعا على العقول ، ويعرف بـه الطريق الى الإصلاح أو الانحراف .

فوق العقول أمور في الحياة جرت
ففرقـت بـين شيطان وقديس
جلت مقاديـر ربي عن مداركنا
سبحانه مـن عظيم الشان قدوس

وللأسمر ، وقفات فـي « الشرقيات » و « السياسيات » و « المصريات » و « السعوديات » ، ما أحسبها بمختلفة عن شعره الذي قال له فيه الراحل : مصطفى عبد الرازق : « لشعرك تأثير في نفسي ، أحسبه يفوق ما يفعل الشعر ، ذلك أنه فيض نفس أحبها ، وقـد يكون سحرا ذلك الذي ترسله نغما موسيقيا في أسلوب سهل ، فيسري في الأرواح ، ويفجر العواطف خلالها تفجيرا . »

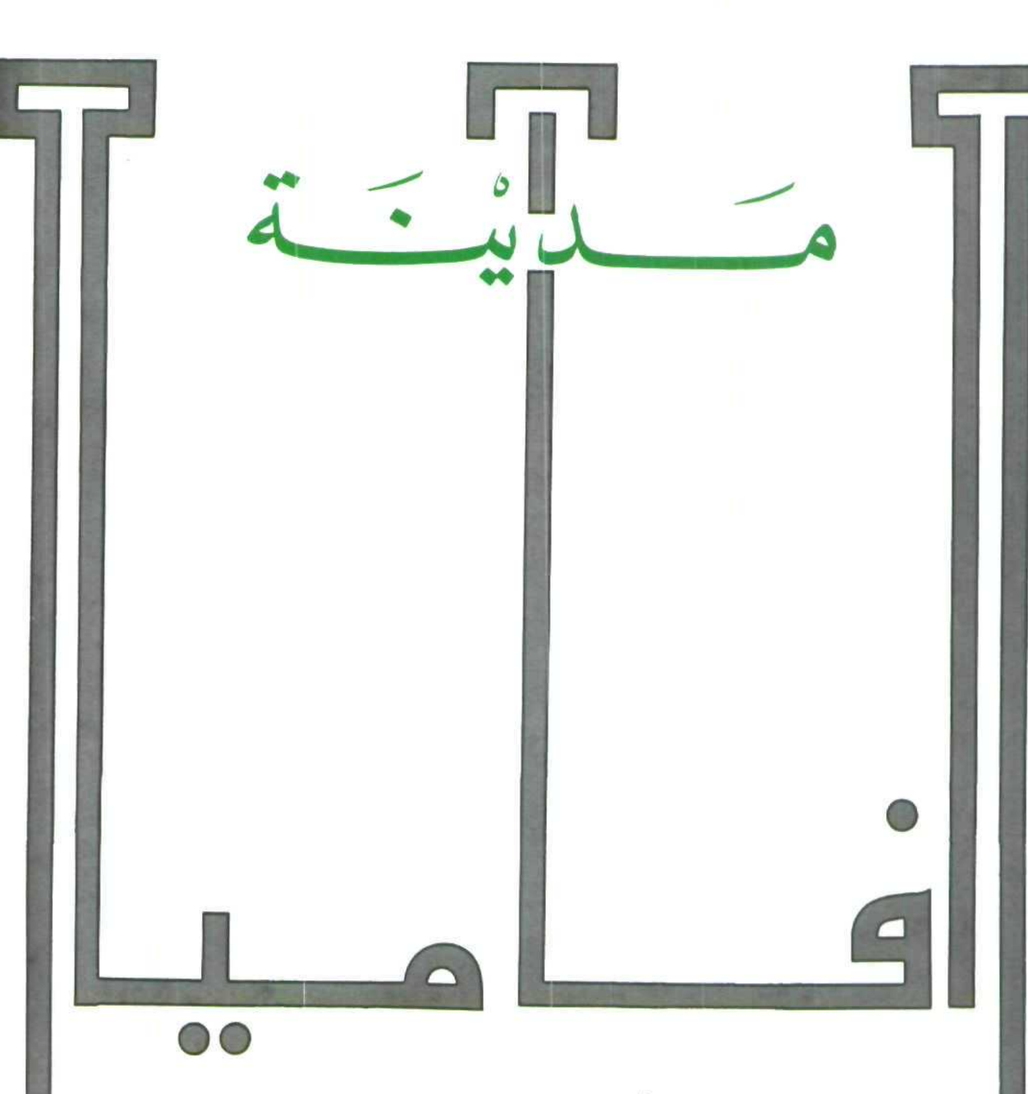
والواقع ، أن التعرض لشعر الأسمر وتحليله ، لا يمكن أن يتم بيسر وان كانت دلالات الرقـة وملكات السهولة ، أكثر من أن تحصى في شعره ، ويكفي أن تكون واحدة تنبىء عن هذه الأصالة ، وتدل على هذه الأريحية .

زار الشاعر ، جلالة الملك « فيصل » وهو يومذلك أمير ، فكانت هذه الرقة ، وكانت هذه العاطفة النبيلة :

حديثـه السحـر الحـلا
ل هـكـذا سمعتـه
والله لا أنساه فـي
مصر غـداة زرتـه
ولست أنسى مـا
سمعت منـه أو شهدتـه
فعـدت مفتونـا بـه
أقـول فيمـا قلتـه
نعـم الأمـير « فيصل »
أحبـبتـه ، أحبـبتـه

رحم الله الأسمر ، بقدر ما أحسن الى العربية ، ومشى بي على طريق الرشاد ●

أبو طالب زيان ــ القاهرة



مدينة أفاميا

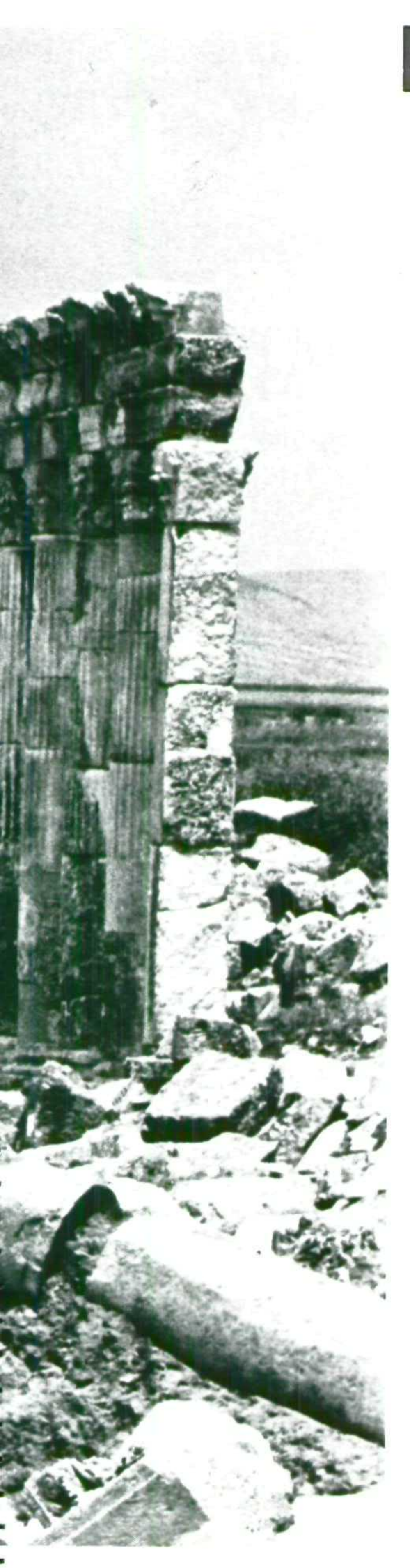
بقلم: الأستاذ حسن كمال

الكشف علم الآثار ، الذي أخذ مكانته الرفيعة اليوم بين العلوم ، كشف النقاب عن مدن كثيرة ترقى الى عصور خلت منذ عشرات القرون ، مدن على جانب من الأهمية كبير ، لا لأهميتها الاستراتيجية ولا لامتدادها المترامي الأطراف فحسب ، وانما لما فيها من العناصر الحضارية التي تدل بوضوح على أن شعبا عاش ذات يوم في هذه البقعة من أرض الله الواسعة ، وكأني بأبناء هذا الشعب قد آلوا على أنفسهم الا أن يتركوا للأجيال القادمة أمثلة حية عن كفاح خاضوه وأبلوا فيه بلاء حسنا . وأبوا الا أن يكونوا عناصر بناء وعطاء في أرض عاشوا فيها ، وحقبة من الزمن مرت بهم أو مرّوا بها ، خاصة وان التراث الحضاري اليوم لم يعد ينظر اليه على انه تراث لجماعات معينة وانما النظرة الجديدة ، تعتبره تراثا حضاريا للناس جميعا ما داموا قد أفادوا منه وتأثروا به وأثروا فيما بعد بالآخرين .

فالحضارة الانسانية اليوم هي حضارة تميل في نزعتها نحو العالمية ، الأمر الذي يجعل العديد من البعثات الأثرية الأجنبية تتجشم المشاق والصعوبات للمثول الى أرض ليست أرضهم والتنقيب عن آثار حضارة ليست حضارتهم رائدهم في ذلك هدف واحد ، هو الكشف عن الحقيقة والسبق العلمي في التحدث عن موضوع جديد ، أو تحديد نظرية جديدة في مجال جديد من مجالات الآثار .

وكنتيجة طبيعية لهذا الوضع الجديد كان لا بد من البحث عن الجذور الحضارية للأرض التي عليها عاش الأجداد ويعيش عليها اليوم الأحفاد .

غير أن التعاون الانساني البناء في المجالات العلمية والذي يشهده العالم اليوم حمل العديد من المؤسسات العلمية المتقدمة على مساعدة الدول التي ما زالت تطور مؤسساتها في ميادين شتى ومنها ميدان الآثار ، والتنقيب عنها في شروط





مخلفات من معالم مدينة أفاميا الأثرية .

علمية جيدة ، يحدوها في ذلك هدف واحد هو البحث عن الحقيقة العلمية والوصول اليها بكل الوسائل البناءة. ومن ثم التحدث عنها في مؤلفات فنية تصل فيما بعد الى أيدي أصحابها وأيدي العالم أجمع .

ولا يستغرب القارىء الكريم اذا علم أن نتائج التنقيب على اختلاف أنواعها تؤول عادة الى أصحاب الوطن الأم لتلك الآثار . ولو كتب للقطعة الأثرية أن تعيش في أرضها ، في منبتها لكان ذلك أجدى لها . ومن أحق في الحفاظ على تراثه والاعتزاز به ، غير الوطن ؟ وهذا ما يجري اليوم في القطر العربي السوري الذي يعمل على أرضه ما يزيد على الثلاثين بعثة أثرية أجنبية (١) ناهيك عن العديد من البعثات السورية . وحصيلة أعمال البعثات الوطنية والأجنبية تؤول الى المتاحف السورية .

تلك هي كلمة لا بد لي من قولها عند الحديث عن مدينة أثرية قديمة كانت فيما مضى مهدا لحضارة رفيعة وينبوعا من المعرفة لا ينضب لــه معين .

والمدينة التي نحن بصدد الحديث عنها هي مدينة « أفاميا » التي لعبت دورا مهما في القرون الخالية . غير أن توالي الحروب وتأثير عوامل الطبيعة والاهمال الذي لحق بها عـبر القرون حولها الى خرائب تمتد على هضبة تطل على وادي العاصي ، وتقع على بعد خمسة وأربعين كيلومترا شمال غربي مدينة حماة وعلى بعد تسعين كيلومترا جنوبي مدينة انطاكية ، حيث مستنقعات سهول الغاب التي حلت منذ القرون الوسطى محل بحيرة كانت مرتعا لكميات كبيرة من الأسماك . أما اليوم فقد جففت تلك المستنقعات وتحولت الى سهل صالح للزراعة . وكأكثر المدن القديمة يطل على المدينة مرتفع صخري كان يقوم عليه اكروبول المدينة والذي يشغله اليوم قرية صغيرة يطلق عليها قلعة المضيق .

وقلعة

المضيق هذه كان يحيط بها سور يعود الى القرون الوسطى ، وبالرغم من قدم هذه المدينة فانها لم تدخل التاريخ الا في عصر غزوات الاسكندر الكبير المقدوني . وتشير الوثائق التي عثر عليها في أساس أحد المباني التي تعود الى العصر الروماني والمكتوبة بالهيروغليفية الحديثة ، تشير الى أن هذا الموقع التاريخي كان في بداية الألف الأول قبل الميلاد داخلا في حدود مملكة حماة . ولم يكن في هذا المكان على ما يبدو الا قرية صغيرة تسمى « فارناكة » وذلك حين قام بعض الجنـود المقدونيين بالتمركز فيها حوالي نهاية القــرن الرابع ق.م . وتأسيس مدينة أطلقوا عليهـــا اسم « بيلا » .

ويقول صاحب كتاب « أفاميا السورية » الأستاذ فيرهوغن : ان موقع المدينة العسكري وخصوبة الأرض المجاورة لــه ساعدتا على التطور السريع للمدينة . وبحسب « بلوتارك » فقد تغير اسم المدينة وأصبح « كيرسونيزوس » ، وأخيرا أطلق عليها اسم أفاميا تيمنا بأفاميا الفارسية زوجة القائد « سولوقوس نيكاتور » وأم ملك انطاكية « أنطيوخوس » الأول . وهي احدى أميرات بلاد فارس واللائي كان الاسكندر الكبير المقدوني قد زوجهن لضباطه في عرس فخم في سوسة .

ونحن اذ نتحدث عن مدينة أفاميا يجدر القول انه من بين المدن الست المسماة أفاميا والتي بناها القائد سولوقوس أو ابنه فان أفامية العاصي كانت لها الرفعة عليها جميعا ، وكانت تتنافس في الازدهار والشهرة مع مدن ثلاث أسّست في سورية الشمالية هي انطاكية والسويدية واللاذقية . وتأتي أفامية العاصي في الأهمية



« اكروبول » المدينة المطل على خرائب مدينة افاميا والذي بني كقلعة حامية للمدينة .

(١) احداها البعثة الأثرية البلجيكية التي تعمل في أفاميا حاليا برئاسة الأستاذ جان بالتي .

بعد انطاكية وكان عدد سكانها آنذاك حوالي سبعة عشر ألف نسمة حسب ما ورد في وثيقة تخص موظفا رومانيا يدعى «ايموليوس سوكوندوس» الذي قام بناء على أمر من رسول كيرينيوس بعملية الاحصاء .

ولقد ظلت هذه المدينة لفترة طويلة العاصمة العسكرية للمملكة ، ففيها قام السلوقيون باحلال الادارة العسكرية ، وفي قلعتها وضعوا الكنوز التي غنموها خلال حروبهم . وبحكم موقعها الجغرافي على مفترق الطرق المطروقة آنذاك فقد تمتعت بمكانة استراتيجية مرموقة ، استطاعت الحفاظ عليها حتى العصر الروماني . وفي هذه المدينة قام « انطيوخوس » الثالث باعداد الحملات العسكرية ضد مصر ، وفي مراعيها الخصيبة بنيت زرائب الخيول ومجمعات الفيلة ، تلك القوة الهائلة آنذاك التي أفاد منها السلوقيون في حروبهم .

وخلال العصر الهلنستي أصبح لهذه المدينة مخطط تنظيمي هام تجلت من خلاله بعض المميزات العمرانية فيما أنشأه السلوقيون من طرق .



قطعة من الفسيفساء كانت تغطي أرض قاعة الولائم في أحد مباني الحي الجنوبي الشرقي في المدينة .



معظم الأعمدة التي أقيمت عليها المباني تحليها النقوش والزخارف الجميلة .

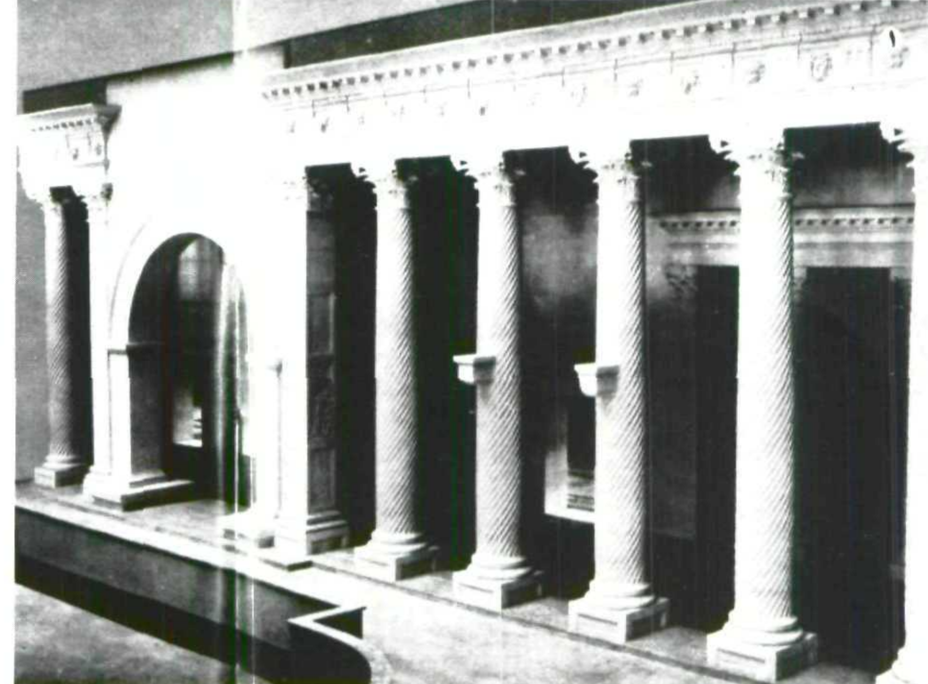
فتقاطع الطريق الرئيسي الممتد من الشمال الى الجنوب مع الطرقات المتجهة من الشرق الى الغرب قسم المدينة الى سطوح رباعية الشكل ، وهذه السطوح هي التي بنيت عليها البيوت . أما الساحة العامة ، فكانت تشكل في المدينة مجموعة معمارية مستقلة بعيدة عن مفترقات الطرق ، وهذا ما نصادفه في كل من دمشق واللاذقية وانطاكية . وتشغل خرائب المدينة اليوم مساحة تقدر بمائتين وخمسين هكتارا تقريبا وهي في حقيقتها خرائب المدينة الرومانية والبيزنطية المتوضعة فوق المدينة الهلنستية والتي جرت عليها بعض التعديلات لجعلها ملائمة للعصر الامبراطوري ، وقد شهد القرن الثاني عددا كبيرا من البناة قام بعضهم بتجهيز الشارع الرئيسي بأروقة مغطاة على طول ١٨٠٠ متر تقريبا ، وزيد في عرض الشارع المذكور حتى بلغ عرضه من الجدار للجدار ٣٧,٥ متر ، منها ٢٢,٥ متر عرض الطريق المخصص للعربات ، بينما بلغ عرض كل رواق ٧,٥ متر .

هذا وقد وجد المنقبون أسماء عدد من الشخصيات الهامة ومنهم الامبراطور « أنطونان » و « لوسيوس ليروس » ١٣٠ – ١٦٩م منحوتة على بعض الأعمدة المحفورة والواقعة بالقرب من مدخل « الاغورا » الساحة العامة ، وهذه الأسماء توفر لنا معلومات أكيدة عن تاريخ هذه المنشآت .

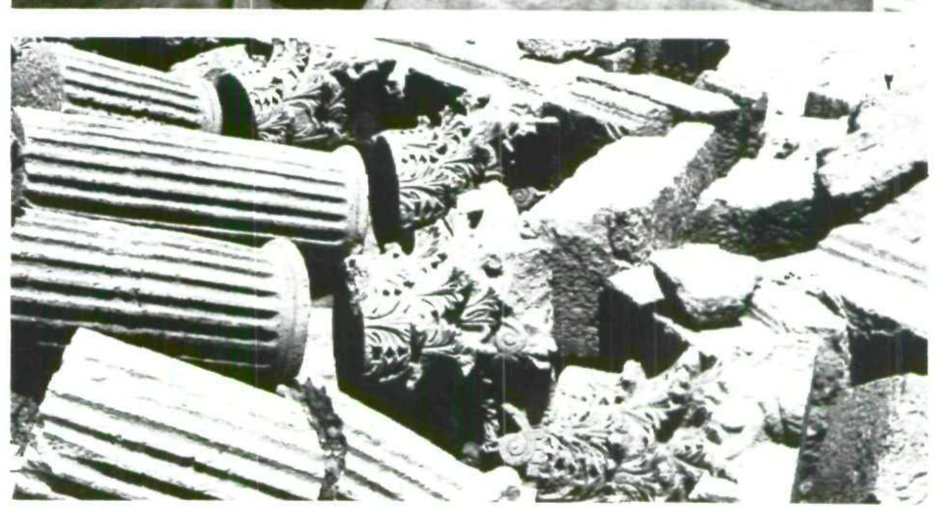
وقد جرت أعمال تجميل في الشوارع الصغيرة المتجهة من الشرق الى الغرب تشبه تلك التي جرت في الشارع الرئيسي ولكن بنسب أصغر ، وقد جرت هذه الأعمال بصورة خاصة في شارعين اثنين على الأقل حيث كانت تمر القوافل المتجهة نحو الصحراء وتدمر أو نحو البحر.

هذا وكانت واجهات بعض المباني الملتصقة بالأروقة ، وكذلك الأقواس التي تسمح بالمرور


٣


١


٤


٢


٥

نحو الشوارع العرضانية تحول دون احساس المرء بالرتابة التي كان يمكن أن تتولد في شارع مستقيم طوله ١٨٠٠م . يضاف الى هذا أن الأعمدة النذرية القائمة في بعض نقاط تقاطع الطرق كانت تحول كذلك دون حدوث مثل هذا التناغم ، فالاغورا بمدخلها الضخم وجدرانها ذات النوافذ المحددة ، وسددها ذات الأعمدة المزدانة بالأغصان ، وكذلك معبد تيشه وكثير من المباني التي لم تحدد بعد هويتها ، وجدت كلها في مجمع انشائي كبير ، وما زال علماء الآثار من السوريين والأوروبيين يعملون بنشاط كبير في أرض هذه المدينة بغية الوصول الى كتابة تاريخ أكثر المباني التي ما زالت حتى يومنا هذا قيد البحث والدرس .

وتجدر الاشارة هنا الى أن أكثر المباني التي تمّ اكتشافها ودراستها ومعرفة أهدافها هي . الملاعب والحمامات ، وقنوات المياه والمسارح ،

٦



١ – هذا الرواق أعيد انشاؤه بمواد حديثة في المتحف الملكي في بروكسل كنسخة عما كان عليه في أفاميا .

٢ – جانب من مخلفات مدينة أفاميا الأثرية .

٣ – جانب من الأعمدة وقد نقشت في أعلاها صور بعض الشخصيات البارزة .

٤ – كتلة حجرية ضخمة تعلوها نقوش تمثل صور شخصيات بارزة أسهمت في ازدهار المدينة .

٥ – جانب من زخارف الفسيفساء التي كانت تزدان بها أرض المباني الهامة في المدينة .

٦ – مجموعة من الأعمدة الضخمة التي تعكس روعة البناء الذي شهدته مدينة أفاميا .



هذه الأعمدة ما زالت باقية رغم عاديات الزمن .



٢



١ — هكذا يبدو بعض أعمدة الشارع الرئيسي بعد اعادتها الى ما كانت عليه .

٢ — مدينة أفاميا الأثرية بعد أن تعرضت لعوامل الطبيعة والزلازل .

٣ — جانب من أعمال الترميم التي أجريت على بعض المباني الهامـة في مدينة أفاميا .

٤ — كتل من الحجارة المتناثرة خلفتها الهزات الأرضية التي تعرضت لها المدينة .

٥ — احدى مراحل العمل الجارية على ترميم أعمدة الشارع الرئيسي في المدينة .

١

٣



٥



٤

وتشهد هذه المباني بوضوح على عملية تجميل المدينة السلوقية القديمة من قبل أسرة أنطوفان . وما رافق هذه الأسرة من ازدهار في مدينة أفاميا استمر حتى أيام أسرة سيفر ، وقد عثر في المدينة على نص يشير الى أن منشآت كثيرة في هذه المدينة قد تم بناؤها بمناسبة زيارة أفراد من العائلة الامبراطورية ، كما جرى إبان زيارة « جوليا دومنا » وكراكلا . وتشير النصوص الى أن الأباطرة أقاموا في هذه المنطقة في فترات مختلفة ليس بحكم ارتباطهم العائلي مع حمص القريبة من أفاميا ، ولكن بحكم موقعها الجغرافي الاستراتيجي والتي منها كانوا يرسلون الحملات العسكرية ضد البارتيين الذين كانوا يهددون حدودها ، وعلى سبيل المثال فان الكتيبة الثانية « بارتيكا سيفريانا » التي ساهمت في تلك الحملات كانت موجودة في أفاميا عند الحوادث التي رافقت اعتلاء « هليوغابال » العرش الامبراطوري عام ٢١٨م .

ولقد شهد القرن الرابع في أفاميا ، اشادة العديد من المباني المزخرفة ، غير أن هذا لا يعني أن المدينة كانت مغمورة في القرون السابقة بل على النقيض من ذلك فقد تألقت في القرن الثالث وتمتعت بسمعة رائعة حتى أمها الفلاسفة والأدباء من كل حدب وصوب ، وكان الروائي «جامبليك» الذي ولد في سورية واحدا من هؤلاء الذين تحلق حوله الأدباء والشعراء والفصحاء فيها .

وقد عثر المنقبون فيها على مساحات واسعة من لوحات الفسيفساء التي كانت تغطي المباني الدينية والمدنية وتمثل في كثير من الأحيان مناظر صيد الحيوانات وفق الأسلوب الواقعي ، وتمثل كذلك زخارف هندسية تأخذ في تنسيقها بمجامع القلوب ، ولكن يبقى أجملها وأكثرها حيوية ما مثلت الانسان ، الذي أعاره الفنانون القدامى اهتماما كبيرا ومثلوه في أوضاع مختلفة .

وخلال القرنين الخامس والسادس بني في أفاميا العديد من المعابد الدينية الهامة ذات المخططات المختلفة الأشكال ومنها واحدة بخمس حنيات أجريت عليها فيما بعد بعض التعديلات لجعلها صالحة للقيام بالاحتفالات الدينية الكبيرة ،

تمثل هـذه الأعمدة التي اعترتها عوامل التعرية والتحات جانبا من المعالم الأثرية لمدينة أفاميا .



كما رممت على أثر الزلزال الذي ضرب المدينة في النصف الأول من القرن السادس وأدى الى تخريبها .

كما تعرضت المدينة خلال ذلك القرن الى تهديدات الفرس المتلاحقة والذين هاجموا المنطقة بأسرها عام ٥٠١م وقاموا بتخريب سورية الشمالية دون أن تتمكن الجيوش البيزنطية آنذاك من حماية الحدود المهاجمة مما شجع المعتدين على مضاعفة الهجمات عليها ، وقد وصف أحد المسافرين الايطاليين وهو « أنطونان دوبليزانس » المدينة آنذاك بالمدهشة ، وهذا ما أيدته التنقيبات الأثرية والتي دلت على أن المدينة كانت غنية في مبانيها ، جميلة بزخارفها كما هي الحال في احدى قاعات الولائم والتي تمّ اكتشافها في أحد مباني الحي الجنوبي الشرقي من المدينة . والقاعة المذكورة كانت تزين أرضها لوحة من الفسيفساء وتغطي مساحة قدرها ١٣م × ٨,٥م . وقد اغتنت اللوحة بعناصر زخرفية هندسية وحيوانية ممثلة لرحلة صيد من رحلات سادة القوم . وتفوق هذه اللوحة ما عداها مما اكتشف في أفاميا أو انطاكية سواء من ناحية التكوين أو من ناحية التصوير والتفاصيل التقنية ، وتقترب بوضوح من لوحات الفسيفساء التي أبدعها الفنانون السوريون في نفس الحقبة من الزمن في القصور الامبراطورية في بيزنطة .

وقد اقتربت هذه المدينة من نهايتها يوم هاجمها الفرس بجيوشهم عام ٥٧٣م . ومنذ ذلك الحين لم تقم لها قائمة ، يضاف الى ذلك الهزة الأرضية التي ضربتها والتي لم تبق فيها من آثار العمران والحضارة الا أن قلعتها هي الوحيدة التي كتب لها أن تلعب دورا مهما في القرون التالية تحت اسم أفاميا ، وقد احتلها العرب عام ٦٣٨م .

ويجري العمل اليوم فيها لرفع أعمدة الشارع المستقيم أو الرئيسي ، وبالتالي ترميم ما اكتشف فيها من المباني الهامة بغية اعادتها الى صورتها السابقة ●

حسن كمال – دمشق

الكتاب .



تأليف : الأستاذ عبد التواب يوسف
عرض وتعليق : الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين

كتاب .. ممتع حقا ، « عمل أدبي روائي انساني » . كما ذكر على غلافه الأخير ، لا تتجاوز صفحاته ١١٩ صفحة ، كتبه الأستاذ عبد التواب يوسف عن أبيه المعلم بهذا الاسم الذي اتخذته عنوانا ، لأتحدث عن هذا الكتاب الذي يكتبه ابن عن أبيه المدرس ، بصدق ، وتجرد ، لأن أباه كان مخلصا لرسالته ، وفيا لها ، بذل قصارى جهده ، ليضيء الطريق للآخرين ، يعطي من ذات نفسه ، يكد ، ويجد ، في مطلع القرن الحالي في قرى مصر ، النائية الصغيرة ، ينشر العلم ويشيعه بالمجان ، أو بدخل زهيد ، بدأ بجنيهين مصريين ، وهو سعيد كل السعادة بالنجاح الذي يحققه كل يوم ، بل كل ساعة ، في حصة درس يؤديها لأبنائه الصغار ، بل اخوته لأنــه كان شابا وقت أن اختير مدرسا ، يبث في نفوسهم روح حب الوطن ، ومعرفة تاريخه ، وجهاد رجاله للتخلص من المحتل ، الجاثم على أرض الوطن ، كان ذلك أيام المناضل سعد زغلول وجهاده .

والأستاذ « يوسف » يتحمس لانتفاضات أمته ، ويتابع بقلق أخبار اعتقال سعد زغلول ، ويشارك ببث الوعي في القرية ، للمطالبة بالإفراج عن الزعيم مع الشعب الذي وقف مع سعد ، ويندد بأعمال المحتل ، وقمعه لنداء الحرية . ويوسف يومئذ فتى ، يافع ، ولكن عقله ونفسه أكبر من سنه ، وبصيرته أبعد وأعمق من حجمه ، ليت تلاميذ الأمس وطلابه ، الذين أصبحوا اليوم رجالا ، يحتلون مراكز كبيرة ، مرموقة ، يديرون ، ويشاركون في الحكم ، لهم أقدارهم ، ونفوذهم وكلمتهم المسموعة . ولهم الثراء العريض .

ليتهم يتذكرون أساتذتهم الذين أثروا في نفوسهم ، وأناروا عقولهم ، وعلموهم ، وأضاءوا لهم سبل النور بالعلم ، فيدعو لهم بالخير ، ويترحموا عليهم ، ويحسنوا الى المعوز منهم ، والذي قعد بــه جهده ، وتقدمت بــه السن ، ولم يجد من يواسيه .

ليتهم يفعلون شيئا من ذلك ، اعترافا بالجميل ، وكفاء جزاء ، ليملأوا أنفس مدرسيهم سعادة ، ويجعلوهم يجددون ذكرياتهم تغمر نفوسهم البهجة والرضا ، على ما قدموا وما بذلوا من جهد ، وما ضحوا من أجل أداء رسالتهم السامية في اشاعة العلم ، ونشره بين طلابهم ، لكي يصبحوا رجال الغد — اليوم .

أديب معلماً

وما أسعد النفس ، حين تنال جزاء ما قدمت .. عن رضا ، تبغي الخير ، وتيسره ، لا تبغي بذلك جزاء ولا شكورا الا من الله عـز وجل .

وليس أقسى على النفس من الجحود والنسيـان والاهمال ، لأن جزاء الإحسان إحسان مثـله ، بـل أكثر .

في الفصل الأول من كتاب الأستاذ « عبد التواب يوسف » المطبوع في دار المعارف بمصر في العام الماضي ، يسأل أبـاه هذا السؤال :

« هل يعطونك ما يقابل هذا الجهد الجهيد ؟ »

وكان الأب المدرس يبتسم ويرد في هدوء :

« لا تتوقع من الحياة أن تعطيك مقابل ما تبذل . ثم انني لست بقالا ولا عطارا ، فيمكنني تقدير ثمن بضاعتي ، ولكني على ثقة من أن لجهدي ثمنا غير منظور ، لا أعرف كيف يمكن أن يؤدى لي ، بل لا أنتظر أن يؤدى . انني أؤمن أن التعليم ليس وظيفة ، ولا مهنة ، ولا عملا ، انما هو « رسالة » و .. « حياة » .

هذا هو جواب انسان يؤدي دورا مهما في الحياة ، والذي يملأ نفسه هذا الايمان بالواجب ، في أجل رسالة لا بد انـه أداها ويؤديها بكل ما يملك من قوة وصدق وتضحية وصبر .

ينمي فكره وعقله ، ويزداد على كل يوم ، ويؤدي ما يعلم وما يتعلم في اتقان وأمانـة وصدق ، وحرص الى تلاميذه ، يحدثهم من القلب الى القلب ، ليصل اليهم ما يفرغه فيهم من ثقافته ، ويؤثر فيهم ويشدهم اليه ، لأنه صادق ، وقد صدقهم ، وما كان من القلب فانه يصل الى القلب مباشرة ، ويعمق أثره وتأثيره ، ويحقق نتائج قوية لا تضعف ، ولا يتسرب اليها الشك .

وهذا هو دور المعلم المثالي ، ورسالته ، وما عدا ذلك فوظيفته ، كأي وظيفة ادارية أو استثنائية ، لا يعول عليها ، ولا تأثير لها ولا أهمية لشأنها .

ويمضي عبد التواب ، يتحدث في الفصل الأول من كتابه عن أبيه ، فينبئنا بأن الأب سقط مريضا ، ومضى بـه في القاهرة الى طبيب ، أستاذ جامعي ، تجاوزت شهرته بلاده ، وانتظرا أمام عيادة الطبيب المشهور دورهما انتظارا طويلا ، ودفعا قبل أن يدخلا على الطبيب أجـر الفحص ، جنيهين ، وكانا يومئذ مبلغا ، لـه قيمته ، لا سيما .. على أمثالهما .

وحين جاء دورهما دفعا الى داخل عيادة الطبيب الكبير ونظر الطبيب نظرة تفحص ، فعرف الشيخ وراح يحييه ، ويرحب بـه ، وظن الابن انها عادة عند الطبيب ، يلاطف زائريه ، ويحتفي بهم ، ثم بدأ يفحصه ، وأخذ ذلك وقتا أكثر مما يتوقع عادة ، فقد طالت عملية الفحص ثم أخـذ الطبيب يسأل الشيخ أسئلة مختلفة ، أكثرها شخصية ، عن دراسة عبد التواب ، ابن الشيخ يوسف . ثم قرر الطبيب ضرورة بقاء الشيخ في أحد المستشفيات ، للعلاج والملاحظة ، وحدد لذلك مستشفاه الخاص ، وأحس الأب والابن بالحرج . من أين لهما نفقات الاقامة في المستشفى والله وحده يعلم بحالهما .

وكتب الطبيب بضعة أسطر على ورقة ، وطواها ، ومدها للشيخ ، وقال لـه ، عليك أن تكون صباح الغد بالمستشفى ، وفي الورقة العنوان ، وأحضر معك الأشياء المطلوبة ، وهي الملابس ... وما اليها ، ومضى الشيخ وابنه الى باب العيادة والطبيب خلفهما ، يودعهما محييا الشيخ ، مجددا الترحاب .

وخارج العيادة .. والطبيب خلفهما ، فتح الشيخ الورقة التي تناولها من الطبيب ، فاذا بها الجنيهان اللذان دفعهما كأجر للفحص ، والتفت ليقول للطبيب في دهشة : ما هذا يا دكتور ؟ وابتسم الطبيب قائلا : هذه أجرة الكشف ، وسوف أكون شاكرا لو قبلتهما .

وسأل الشيخ الطبيب : لماذا تردها ؟

وابتسم الطبيب مرة أخرى ، وقال للشيخ : سوف أكون سعيدا لو جلست الي ، لأشرح لك الأمر . وعـاد الاثنان الى العيادة .



« وتهدج صوت الطبيب الكبير » .

وسأل الطبيب الشيخ : « لا أظنك يا أستاذي تذكرني ، أما أنــا فلم أنسك يوما ، أنا واحد من ابنائك ... تلاميذك في « بني سويف » .

ومضى الطبيب يقول : « أنا أعلم أن مواكب التلاميذ بالمئات ، بل بالألوف ، قد مروا بك ، يأخذون من علمك ، وليس من السهل أن تذكرهم ، وقد كبروا . أما هم ، فان صورتك لن تبارح أذهانهم ، ولقد عشت أنا شخصيا كل هذه السنين أنتظر لقاءك ، فأنت وراء كل خطوة ناجحة خطوتها في حياتي » . جلس الأب الشيخ والابن صامتين ، والطبيب يتحدث ، ويزداد صوته تأثرا وعمقا . ثم قال الطبيب : « اني احتفظ هنا في مكتبي بكراسة الإنشاء التي كتبت لي فيها بخط يدك الكريمة عبارة فرشت طريق عمري بالنور . ومد يده ، وأخرج الكراسة القديمة ، وقد جلدها ، وقلب صفحاتها ، ثم مد بها الى الشيخ الذي تطلع الى خطه وكلماته في لهفة » .

ووجد ما كتبه بخطه الأحمر هذه الجملة :

« ليتك تصبح يا بني طبيبا إنسانا ، كذلك الرجل الذي صورته في موضوعك ، هذا أملي فيك ، هل تحققه ؟ »

وحمد الشيخ ربه مرات ، وقال : « كنت أظن أني أضعت حياتي هدرا » ورد الطبيب : « لقد صنعت حياة الآخرين ، لقد استطعت أن تبني البشر ، أنتم المعلمين .. الصناع الحقيقيون في مصانع الثقافــة ، التي تنتج الأطباء والمهندسين والصحفيين والمحامين ، وكل الناجحين في الحياة ، أنتم الأساس ، أنتم صنعتم أبطالا وزعماء ، وقادة ، تعيشون جنودا مجهولين لكن ثق أن فضلكم في قلوب أبنائكم » .

ودمعت عينا الشيخ ، وتمتم قائلا : « لقد عشت عمري كله معلما من أجل هذه اللحظة .. ان البعض يظن ، أن المرتب الذي يتقاضاه المعلم هو مكافأته عن عمله . لا .. ان مكافأته لحظة كهذه ، يتوج فيها عمله ، يتوج فيها عمره » .

وقدر الشيخ الجنيهين اللذين ردهما اليه الطبيب مليوني جنيه ، واحتفظ بهما في علبة بقية حياته ، لم تمتد اليهما يده لينفقهما ، حتى ساعة الحاجة ، وكان كلما ضاقت بـه الحياة وأظلمت ، مد يده الى العلبة ليفتحها ، وينظر في الجنيهين ، فيعود اليه الأمل من جديد ، وتطيب نفسه .

وحين نتابع قصة الشيخ عبد التواب يوسف من أولها ، نجده طفلا في قرية « الفشن » من صعيد مصر ، ألحقه أبوه بكتاب الشيخ « عبد السميع » ليحفظ القرآن الكريم ، ويظهر ذكاء الطفل ، الذي لم يتجاوز الثامنة ، ويزداد حفظه ، ويبز أقرانه ، حتى الذين سبقوه ، فيصبح عريف الكتاب ، ويتم حفظ القرآن في ثلاث سنين ، ويقرأ تاريخ بلاده ، ويتابع نضالها ، ويشارك فيه ، بعد أن أصبح معلما في القرى المجاورة لقريته .. في صعيد مصر ، ويتعرض للفصل والطرد ، ولزوم قريته قسرا ، ويمضي ، يجاهد ، يعلم ويزرع حب الوطن في تلاميذه ، وكانت الساعة الثامنة كل صباح موعد سعادته ، ليلتقي بتلاميذه ، ليحدثهم عن دورهم ، وما ينتظر منهم الوطن ، وكل حصة من دروسه ، ميلاد جديد لـه ولتلاميذه ، فأحبوه كل الحب ، وآثروه على غيره من المعلمين ، وتعلقوا به . وظل يتنقل من قرية الى قرية أخرى ، ينشر العلم ، ويحث على العمل ، لا يتوانى ولا يكل ، ولا يسعى الى جاه أو مال ، وانما هو صاحب رسالة يؤديها ، سعيدا بهذا الدور الانساني الكبير الذي ينهض بـه ، الى أن يتوفاه الله ، فيمشي في موكب جنازته البلد كله ، وفي مقدمة أهله تلاميذه يترحمون عليه ، لأنه غرس فيهم روح الجد والعلم .

لقد استمتعت بهذا الكتــاب ساعات ، لا يعدلها شيء من متع الحياة .. ولولا خوفي من الاطالــة لأتيت على كل دقائقه في حياة هذا الرجل الندرة ●

عبد الفتاح أبو مدين ـ جدة

أخبار الكتب

* كتاب جديد عن «طه حسين في الضحى من شبابه ١٩٠٨ – ١٩١٣» صدر للأستاذ عبد العليم القباني في سلسلة «المكتبة الثقافية» التي تنشرها الهيئة المصرية.
* ويصدر قريبا كتاب عن طه حسين بقلم أرملته السيدة سوزان. والكتاب يسجل الخطوات الرائدة للدكتور طه حسين في عالم الفكر والأدب وحياته الخاصة.
* ومن كتب السير التي نشرت أخيرا كتاب «يعقوب بن الليث الصفار» تأليف الدكتور ابراهيم باستاني باويزي وقد ترجمه عن الفارسية الدكتور محمد فتحي يوسف الريس ونشرته دار الرائد العربي، وكتاب «شخصيات تاريخية من سقراط الى راسبوتين» للأستاذ علي أدهم ونشر دار القدس ببيروت، و «أبو بكر الزبيدي الأندلسي وآثاره في النحو واللغة» للأستاذ نعمة رحيم العزاوي ونشر مطبعة الآداب بالنجف.
* يصدر قريبا للبحاثة الأستاذ اميل توفيق كتاب جديد عنوانه «الشخصية : توجيهاتها وحاجاتها في نظرية أريش فروم».
* «المحرر الدبلوماسي» عنوان كتاب جديد من كتب الصحافة العملية ألفه الأستاذ حمدي فؤاد المحرر الدبلوماسي لجريدة الأهرام وتوزعه الجريدة.
* تواصل الدار التونسية للنشر اصدار كتاب «تفسير التحرير والتنوير» الذي ألفه سماحة العلامة الراحل الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور مفسرا فيه آيات الذكر الحكيم. وقد صدر من الكتاب اثنا عشر جزءا، وهو يقع في ثلاثين جزءا تصدر بقيتها تباعا.
* «أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول الهجري» عنوان كتاب جديد للدكتورة ابتسام مرهون ونشر جامعة بغداد.
* ترجم الدكتور بديع محمد جمعة كتاب «منطق الطير» لفريد الدين العطار النيسابوري وراجع الترجمة على أصلها الفارسي الدكتور عبد النعيم محمد حسنين، ونشرت الكتاب دار الرائد العربي.
* صدر الجزء الأول من «فهرست مخطوطات مكتبة حسن حسني عبد الوهاب» من تصنيف الأستاذ عبد الحفيظ منصور ونشر المعهد القومي للآثار في تونس. ومما يذكر أن مكتبة العلامة حسني عبد الوهاب من أغنى المكتبات الخاصة بالمخطوطات الثمينة، وهذا الفهرس يكشف عن بعض ما تحتوي عليه من النفائس والنوادر.
* ديوانان جديدان صدرا أخيرا هما «مقاطع من قصيدة الحياة اليومية» للأستاذ كاظم نعمه، و «الشجرة الشرقية» للأستاذ فاضل العزاوي. ونشرت الديوانين وزارة الاعلام العراقية.
* «استقرار المصطلح» عنوان دراسة صدرت في فصلة مستقلة ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق. وتعالج هذه الدراسة مشكلة تذبذب المصطلحات وانسحاب المصطلح الواحد على أكثر من معنى محدد، مما تضيع معه الدقة العلمية المطلوبة. ويستهدف البحث توحيد المصطلحات وتثبيتها بحيث لا ينصرف مصطلح الا الى معنى واحد لا يجاوزه فيسهل على الباحث متابعة موضوعه بوضوح وتحديد كاملين.
* مسرحية «الحياة حلم» للأديب الاسباني كالدرون دي لاباركا ترجمت الى العربية بقلم الدكتور صلاح فضل وراجعها الدكتور محمود علي مكي ونشرت في الكويت.
* رواية عنوانها «سوق الكلاب» صدرت عن دار الكتاب العربي في سوسة للأديب الأستاذ محيي الدين بن خليفة.
* قرر اتحاد الكتاب العرب في دمشق اصدار مجلة جديدة عنوانها «مجلة التراث العربي» يرأس تحريرها الأستاذ عبد المعين الملوحي.
* تصدر قريبا دراسة عن الشاعر الراحل صالح جودت أعدها زميله في رحلة الشعر والحياة الدكتور مختار الوكيل. كما يصدر الأستاذ عامر محمد بحيري كتابا عن العلامة الراحل الدكتور زكي مبارك.
* قصة «الباحث عن الحقيقة» التي كتبها الأديب الراحل محمد عبد الحليم عبد الله صدرت لها ترجمة بالفارسية من قلم الأستاذ حسن فرمرزي.
* نشر في تونس كتاب «مجالس العرفان» في جزءين لفضيلة الشيخ محمد العزيز جعيط وفيه بحوث ودراسات دينية وأخلاقية.
* آثار الأديب الفلسطيني الراحل محمد اسعاف النشاشيبي جمعها الأديب الدكتور كامل السوافيري في سفر ضخم مجلد.
* دراسة عن الشاعر السعودي الكبير الأستاذ حسن عبد الله القرشي وضعها الدكتور عبد العزيز الدسوقي.
* أعد الدكتور يوسف أسعد داغر للنشر كتابا كبيرا عنوانه «المؤلفون اللبنانيون باللغة الفرنسية» يقع في نحو ٢٠٠ صفحة وتندرج فيه أسماء أكثر من ثلاثة آلاف أديب من أدباء لبنان الذين كتبوا باللغة الفرنسية.
* دراسة جامعية كبيرة عن الشاعر بدر شاكر السياب يعدها الأديب الفلسطيني الأستاذ أحمد السوافيري.
* تعكف كريمة الأديبة الراحلة فله فهمي بدوي على تنضيد آثارها المنشورة وغير المنشورة. ومنها كتاب كبير عن جورج برنارد شو ورسائل متبادلة بين الأديبة والكاتب الايرلندي الساخر، ومنها أقاصيص مترجمة، ومنها فصول في التربية والأخلاق نشرتها في سنوات طويلة في مجلة الطالبة المحتجبة.
* صدرت للشيخ محمد المجذوب مؤلفات عديدة في الصيف المنصرم منها ما كان في طبعته الأولى ومنها ما كان في طبعته الخامسة وفيها : علماء ومفكرون عرفتهم، بطل من الصعيد وقصص أخرى، المخطوفون وقصص أخرى، كلمات من القلب، مشكلات الجيل في ضوء الإسلام، درس من الوحي، بطل الى النار وقصص أخرى، قصتان من الماضي، القصص الأربع للشباب والطلاب، من تاريخنا ومشاهد من حياة الصديق.
* حقق الأستاذان محمود الطناحي والدكتور عبد الفتاح الحلو الجزء العاشر من كتاب «طبقات الشافعية» للحافظ السبكي، وبه اختتم الكتاب الذي نشرته دار احياء الكتب العربية. ومما يذكر أن الأستاذ عبد الله أحمد قد حقق كتاب «طبقات الشافعية» لجمال الدين عبد الرحيم الأسنوي في جزءين ونشر بمقدمة للأستاذ نافع قاسم عن مطبعة الإرشاد في بغداد.
* بعد انقضاء أكثر من ألف سنة على وفاة المتنبي صدر عنه أخيرا كتابان كبيران، هما الطبعة الثانية من كتاب «فن المتنبي بعد ألف عام» لشاعر البحرين الأستاذ ابراهيم العريض وقد نشره في الكويت، وكتاب «المثال والتحول في شعر المتنبي» تأليف الدكتور جلال الخياط ونشر لجنة مهرجان المتنبي ببغداد.

القصر اليتيم

للشاعر : عبد الرزاق الهلالي

يا قصر ما لي أراك اليوم مكتئبا ... تشكو الزمان وتبدو حانقا غضبا
تقول : هذي ربوع غاب آهلها ... وخلّفوني بها أشكو الضنى ، خربا
بالأمس كانت مقاصيري يشعّ بها ... نور له وهج ، واليوم فيها خبا
وكنت أسمع فيها كل ملحمة ... عن البطولة مهتزا لها طربا
حولي ملوك وأبطال جحاجحة ... كانوا ذؤابة قومي ، سادة نجبا
قد شيّدوا الملك مزهوّا على أسس ... من العدالة ، ما ردّوا لها طلبا
وقد أناروا بشمس العلم ساطعة ... هذي الديار التي كانت تعج ، غبا

• • •

لكنّما الدهر غدار ، فان فتحت ... له المقادير بابا ، أورث العطبا
كذاك قومي ، لما ثار ثائرهم ... فأشعلوها حروبا تصطلي ، لهبا
تفرّقوا فغدت أوطانهم بددا ... والشعب مما جرى قد صاح : واحربا
واذ همو في خصام بات جاحمه ... يدمي القلوب ، وأمسى الحكم مضطربا
تجمّعت أمة الاسبان فانحدرت ... للانتقام ، فنالت منهم الأربا
حتى اذا ما جلوا عن أرض أندلس ... مخلّفين تراث العرب ، منتهبا
بقيت وحدي (يتيما) بعد ما رحلوا ... أشكو الخراب وأشكو الهمّ والوصبا
لكنني ما أزال الدهر منتسبا ... الى العروبة ، ما أحلاه منتسبا
فان بقيت على كره يؤرقني ... ما قد بنى فوق صدري(١) قادة غربا
فانني قد شعرت اليوم أن يدا ... أبقت عليّ ، لأروي قصة عجبا
فقد تكاثر زوّاري ، وهم أمم ... شتى وقد زحموا ميداني الرحبا
وراح كلّ ، قبيل فاغرا فمه ... وعقله بفنون العرب قد خلبا
يقول : حقا أرى فنّا له أسس ... ما زال حيّا برغم الدهر منتصبا
هذي المقاصير والقاعات قد زخرت ... بفنّهم فاستحالت متحفا صخبا
تبدو عليها من الآيات واضحة ... كتابة تحمد الله الذي وهبا
تقول (لا غالب الاه) فهو لنا ... نعم المعين اذا ما ضارب ضربا
فهل تراني بعد اليوم ذا حنق ... أم انني بتّ مسرورا بها طربا ؟
من أجل هذا سأبقى الدهر ذا هدف ... أسعى لتحقيقه كي أخدم العربا

• • •

فقلت يا أيها القصر العظيم لقد ... سمعت منك كلاما ، فضة ذهبا
اذ زدتني اليوم إيمانا بفلسفة ... ان المصائب قد تبقي لنا سببا
لذاك قد صرت مسرورا ومبتهجا ... من بعد ما كنت في ملقاك مكتئبا
فاقبل رعتك يد الرحمن معذرتي ... ودم الى العرب والاسلام منتسبا

عبد الرزاق الهلالي – بغداد

(١) اشارة الى القصر الذي بناه احد ملوك الاسبان بعد ذاك في ساحة هذا القصر فشوه منظره .

دور الأرقام العربية في الحضارة الإسلامية

بقلم : الدكتور علي عبدالله الدفاع

في غابر الأزمان كان الانسان لا يعرف الأعداد الحسابية ، وكل ما كان يستطيعه هو تقدير الكمية بقليل أو كثير. فقد كان لا يفرق بين الثلاثين ، والثلاثة ، والأربعين ، والأربعة ، والخمسين ، والخمسة.. الخ .. وغاية الأعداد التي كان يعرفها هي واحد واثنان ثم كثير . ولا شك انه لا يمكن لأي حضارة أن تتقدم دون علم الأعداد . ولم تبدأ أوروبا باستعمال الأعداد العربية الا في القرن الثالث عشر الميلادي لتعصبها ضد التأثير الاسلامي رغم رداءة الأرقام الرومانية التي كانت تستعملها قبل ذلك . وقد قال أستاذ الرياضيات في كلية « بيبدى » الدكتور « هيرستن بانكس » في كتابه « الرياضيات الحديثة » انه باستطاعة الانسان استعمال الأعداد الرومانية في حالة جمع الأعداد ولكن عندما يحاول اجراء عمليات الضرب والقسمة تظهر مميزات الأعداد العربية التي توفر الوقت والمادة والعملية الحسابية المضبوطة .

هذا وقد نجح العلماء العرب والمسلمون في ابتكار نظامين لكتابة الأرقام هما :

• نظام الأرقام الغبارية : وقد جاء هذا الاسم بسبب كتابتها على منضدة أو لوحة من الرمل عند اجراء العمليات الحسابية وهي المنتشرة في المغرب العربي بما في ذلك الأندلس ومنها دخلت الى أوروبا وسميت بالأرقام العربية .

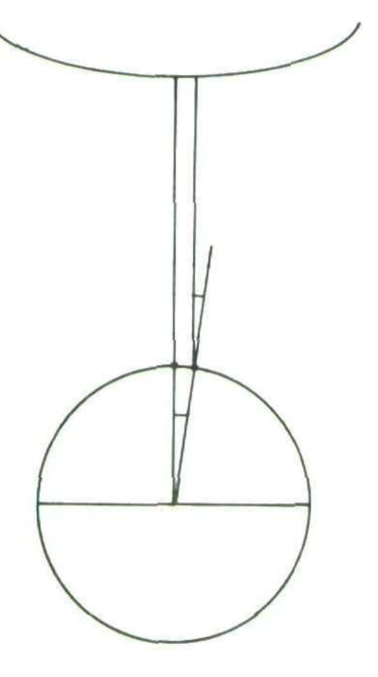
• والنظام الثاني هو المسمى بالأرقام الهوائية أو النظام الخوارزمي في الأقطار الاسلامية والعربية والمشرقية . وهذا يتفق مع تسمية النظام الخوارزمي ، أما الهوائي فالمقصود منه العد في الذهن ، وكما جاء عنه في المصادر العربية انه علم يتعرف منه كيفية حساب الأحوال العظيمة في الخيال دون كتابة ، واليوم تستعمل معظم شعوب العالم الأرقام الغبارية « 1,2,3,4,5,6,7,8,9,0, » .

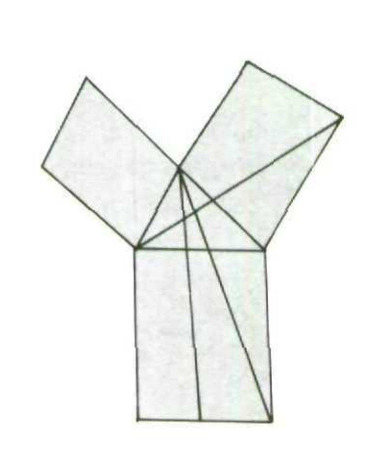
كان الساميون يستعملون الحروف الهجائية فدونوا الأرقام بالأحرف الأبجدية . كذلك في القرن الأول الهجري كان بعض علماء المسلمين يستعملون الحروف الهجائية في كتابة مؤلفاتهم فوضعوا لكل حرف رقما خاصا يدل عليه كما يظهر في الجدول الآتي :

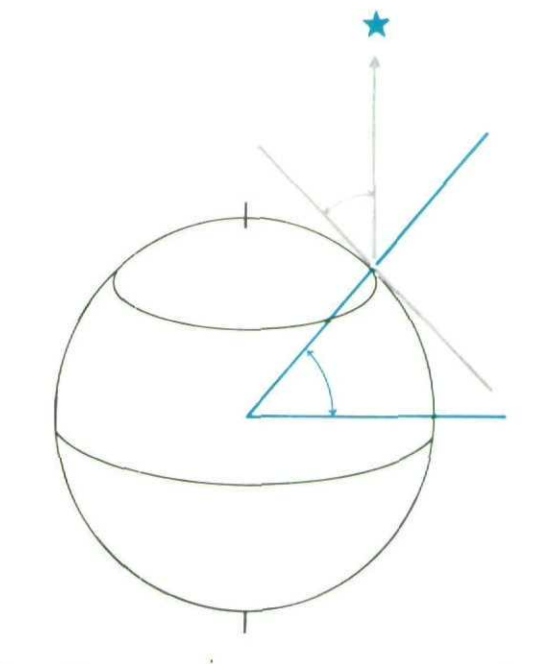
أ	ب	ج	د	ه	و	ز	ح	ط	ى	ك	ل	م	ن	س
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠
ع	ف	ص	ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ		
٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠		

فالأعداد التي تزيد على الألف ٢٠٠٠ = بغ ٣٠٠٠ = جغ ، اغ = ١٠٠١ . كما يلاحظ أن يا = ١١ ، سو = ٦٦ ، خلط = ٦٣٩ ، صح = ٩٨ . وهذه الطريقة استمرت مدة طويلة حتى ابتكر المسلمون الأعداد الغبارية والخوارزمية التي ما زالت تستعمل الى اليوم .

والأعداد الشائع استعمالها اليوم في جميع أنحاء المعمورة هي الأعداد الغبارية العربية ، ولو أن نفرا قليلا من علماء الغرب يدعون خطأ انها هندية الأصل . ولقد شهد بعكس ذلك أكبرهم وهو المؤلف المشهور « رام لندو » في مقالته بعنوان « مآثر العرب في علمي الرياضيات والفلك » في مجلة العالم العربي أن أول كتاب كتب واستعملت فيه هذه الأعداد كان عام ٨٧٤ ميلادية وطبع في البلاد الاسلامية ، وظهر كتاب مشابه له في الهند واستعملت فيه هذة الأعداد العربية أيضا في عام ٨٧٦ ميلادية أي بعد سنتين من ظهور الكتاب العربي . وأضاف الدكتور « بشير التركي » المدير المسئول عن تحرير مجلة العلم في مقالة بعنوان « الأرقام العربية » : وقع البيان في أن الأرقام المستعملة اليوم في العالم أجمع سواء كانت ١/٢/٣/٤/٥/٦/٧/٨/٩/٠ أو كانت 1,2,3,4,5,6,7,8,9,0, هي كلها عربية الأصل ، فكتابة الأرقام والتكلم بها يشكل عنصرا مهما في حضارة أمتنا العربية الإسلامية . ولو افترضنا جدالا أن الهنود هم المكتشفون للأعداد العربية فان المسلمين هم الذين استخدموها في عملياتهم الحسابية ، وهم الذين بدأوا في نشرها في جميع أنحاء العالم بحكم تجارتهم . ويقول الدكتور « كارل بوير » في كتابه « تاريخ الرياضيات » إنه بدون اكتشاف العرب للأعداد العربية كان من الممكن أن تكون الرياضيات الآن في مهدها ، ولكن بواسطتها استطاع الانسان أن يخترع ويستنبط ، ويتعرف الى كثير من معالم الطبيعة وأسرارها . وقال المؤلف « دونالد ميرك » في كتابه « الرياضيات لطلبة العلوم الاجتماعية » ان الأعداد العربية التي تستعمل الآن في جميع أنحاء المعمورة لها







ميزات ثلاث :

- سهولة استعمالها وجمالها .
- سهولة فهمها .
- طابعها المنطقي الذي تمتاز به على الأعداد الرومانية .

ولقد قسّم المسلمون الأعداد العربية الى قسمين رئيسيين هما زوجي وفردي، وعرّفوا كلا منهما . فالعدد الزوجي هو العدد الذي يقبل القسمة على (٢) ويكتب على الصيغة (٢ن) حيث ن عدد صحيح . ولم يقف العرب عند هذا الحد بل زاد اهتمامهم بتطوير علم الأعداد حتى قسموا العدد أيضا الى ثلاثة أقسام تاما أو زائدا أو ناقصا ، وبينوا معنى كل منها على حدة . فالعدد التام هو العدد الذي يساوي مجموع قواسمه . فمثلا ٦ عدد تام لأن مجموع قواسمه = ١ + ٢ + ٣ = ٦ . أما العدد الزائد فهو العدد الذي يكون مجموع قواسمه أكبر منه . فمثلا ١٢ عدد زائد لأن مجموع قواسمه ١ + ٢ + ٣ + ٤ + ٦ = ١٦ ، وأخيرا العدد الناقص وهو العدد الذي مجموع قواسمه أقل منه . فمثلا ٨ مجموع قواسمه = ١ + ٢ + ٤ = ٧ . كما اهتم العرب بتطوير الأعداد المتحابة . وعرفوا العددين المتحابين بحيث يكون مجموع عوامل العدد الأول يساوي العدد الثاني . ومجموع عوامل الثاني يساوي العدد الأول . فمثلا (٢٢٠ ، ٢٨٤) هما عددان متحابان لأن قواسم ٢٢٠ = ١ + ٢ + ٤ + ٥ + ١٠ + ١١ + ٢٢ + ٤٤ + ٥٥ + ١١٠ = ٢٨٤ وقواسم ٢٨٤ = ١ + ٢ + ٤ + ٧١ + ١٤٢ = ٢٢٠ . كما بحثوا في النسبة والمتواليات وقسموها الى ثلاثة أنواع :

- المتواليات العددية .
- المتواليات الهندسية .
- المتواليات التوافقية التي استعملوها في استخراج الألحان والأنغام .

ابتكار الصفر

ابتكر المسلمون مفهوم الصفر الذي سهل العمليات الحسابية تسهيلا لا حدود له ، وعرفوه بأنه المكان الخالي من أي شيء ... ولكن هذا المفهوم يعني في الحقيقة الشيء الكثير . فمثلا الفرق بين أربعة وأربعين هو الصفر . ويعتبر الرياضيون الصفر أعظم اختراع وصلت اليه البشرية ، وفعلا فانه يستحيل دون الصفر وجود الكمية الموجبة والكمية السالبة في علم الكهرباء ، والموجب والسالب في علم الجبر . والذي يؤكد أن المسلمين هم الذين ابتكروا الصفر هو استعمالهم له أول مرة في عام ٨٧٣ ميلادية بينما لم يستعمله الهنادي الا في عام ٨٧٩م . وبدون الصفر يصعب الوصول الى نظريات الأعداد التي يعتمد عليها اعتمادا كبيرا في الرياضة المعاصرة مثل استخدام العمليات الحسابية بواسطة الخط المستقيم . والجدير بالذكر أن أوروبا ظلت تتردد طيلة ٢٥٠ سنة قبل أن تقبل مفهوم الصفر رغم فوائده الجمة ، واستمرت في استعمالها الأعداد الرومانية البالية في القرن الثاني عشر حيث حاولت بكل جهدها أن تبتعد عن استخدام الأرقام العربية بصفرها حتى فرضت هذه نفسها لتفوقها الكبير على كل الأرقام الأخرى . غير أن أوروبا لم تجد بدا من استيراد الأرقام العربية من المسلمين عبر البلدان الأوروبية الاسلامية مثل الأندلس وصقلية.

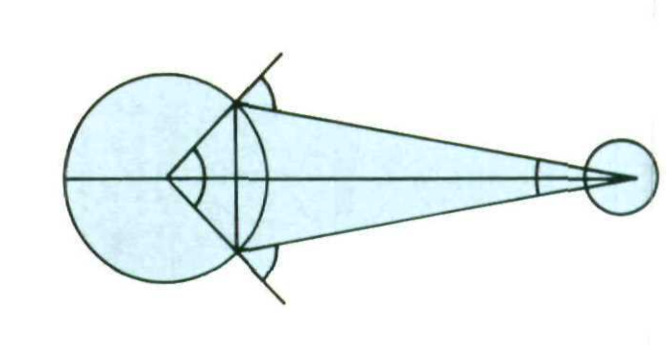
أطلق الهنود على الصفر اسم « صونيا » ويعنون بهذا مكانا أبيض فارغا ، والايطاليون أسموا الصفر « زينورا » وكذلك الفرنسيون أسموه « تريبارتي » وتوجد له أسماء عديدة في مختلف اللغات ولكن كلها تعني المعنى الذي أعطي للصفر باللغة العربية بواسطة علماء المسلمين. وأخيرا سيطر اللفظ العربي نفسه على الألفاظ الأخرى في جميع لغات العالم .

وقبل ابتكار الصفر كان العرب يستعملون اللوحة لكي يحفظوا للأرقام خاناتها الحقيقية ، وهذه اللوحة يمكن توضيحها بالرسم التالي :

	٢		٣
٤		٢	
	١		

فمثلا العدد ٢٠٣ يكتب كما هو مبين في السطر الأول من الرسم ، والعدد ٤٠٢٠ يكتب كما في السطر الثاني ، والعدد ١٠٠ في السطر الأخير . ولكن هذه الطريقة كانت شاقة ومتعبة وتستغرق وقتا طويلا ولذلك فقد اندثرت بعد ابتكار الصفر.

وعندما اكتشف المسلمون الصفر عبروا عنه بدائرة ومركزها نقطة ٠ ففي المشرق ، ونعني بذلك





الخوارزمي



البيروني

مصر وما فيها شرقها من بلاد المسلمين ، احتفظ المسلمون بالنقطة « مركز الدائرة » واستعملوها مع أعدادهم فكانت ١/٢/٣/٤/٥/٦/٧/٨/٩/٠ أما في المغرب وتشمل كل البلاد الاسلامية غرب مصر بما فيها الأندلس فقد احتفظوا بالدائرة دون مركزها فكانت أعدادهم كالآتي : 1,2,3,4,5,6,7,8,9,0 ولقد قال الأستاذ توفيق الطويل في كتابه « العرب والأعداد » ان الدائرة ومركزها هما من ابتكار المسلمين بحيث أصبح العالم الآن لا يمكنه الاستغناء عن الصفر .

كما أن للصفر مميزات عديدة ومن أهمها اكتشاف الكسر العشري الذي له الفضل الكبير في اختراع الحاسبات الألكترونية (Computer) . فعلى سبيل المثال اعترف المؤرخ الألماني « لوكي » المشهور في تاريخ الرياضيات بوجوب نسب اختراع الكسور العشرية الى العالم الرياضي المسلم الشهير « جمشيد بن محمود غياث الدين الكاشي » الذي توفي عام ١٤٣٦م . وهو رياضي وفلكي ، ومن كتبه « مفتاح الحساب » و « الرسالة المحيطية » . ولقد ادعى الغربيون تعصبا أن « ستيفن » هو مبتكر الكسر العشري ، رغم أنهم يعرفون أن « ستيفن » أتى بعد « الكاشي » بقرابة ١٧٥ سنة . كما ورد أيضا في « الرسالة المحيطية » للكاشي ، النسبة التقريبية بين محيط الدائرة وقطرها التي يرمز اليها اليوم بالحرف « ط » وقد أعطى قيمة « ط » صحيحة لستة عشر رقما عشريا كالآتي : ٢ط = ٧١٧٩٥٨٦٥ ٦,٢٨٣١٨٥٠ ولم يسبقه أحد من العلماء في إيجاد قيمة « ط » بهذه الطريقة المتناهية . كما أن المسلمين استعملوا الكسر العشري في عملياتهم الحسابية وأوصلوها الى الأندلس في نفس القرن الذي وصلت فيه الأعداد العربية بصفرها الى أوروبا عن طريق « ليونارد فيبوناسي » الايطالي الجنسية الذي عاش في الفترة ما بين ١٢٢٥ — ١٢٧٠ ميلادية ، والذي أخذ علم الرياضيات عن علماء المسلمين المشهورين حيث ان والده كان من التجار الايطاليين الذين كانوا يتعاطون مع المسلمين التجارة . وهناك كثيرون من مؤرخي علم الرياضيات يعتبرون خطأ أن « فيبوناسي » هذا هو الذي أنقذ أوروبا باستعمالها الأعداد العربية بصفرها .

الختام

ومن المؤسف حقا أن الكثير من المؤرخين العرب والمسلمين يقعون في الخطأ الكبير عندما يسمون الأعداد العربية بالهندية مما أدخل الشك في نفوس كثير من الشباب المتعلم في البلاد العربية والاسلامية وأعطى الفرصة لعلماء الغرب الذين انتهزوا وتبنوا هذا الاسم الخطأ . وقد نشر الكاتب المعاصر « عبد الرحمن عبد اللطيف » مقالة في مجلة العلم بعنوان « الأرقام العربية » ساعدت بالفعل على ازالة هذا الشك الخطير ، ومما قاله في هذا الصدد : ان الأرقام الغبارية ابتكرها العرب منذ أول عهدهم بتعلم الكتابة العربية وذلك قبل البعثة المحمدية فيما بين منتصف القرن الثالث الميلادي ونهاية القرن السادس الميلادي ، وهو الوقت الذي تم فيه أيضا تحول الخط العربي من صورته النبطية البحتة الى صورته العربية المعروفة حتى الآن . وهي الصورة التي لا تبعد كثيرا عن صورة الخط النبطي التي كانت يومئذ هي نفس صورة الأرقام الغبارية تماما . وقد تبيّن ذلك مؤخرا من خلال نقش للخط النبطي اكتشفه العالم الأثري الفرنسي « رينيه دوسو » المتوفى سنة ١٩٥٨ ميلادية ، خلال عمليات التنقيب التي أجراها في رأس شمرا بجنوب سوريا وعثر عليه في بلدة « النماردة » بحوران . ويرجع تاريخ هذا النقش الى سنة ٣٢٨ ميلادية ، وفيه ذكر امرؤ القيس .

والجدير بالذكر أن العرب اختاروا النقطة لتعبر عن الصفر لأن النقطة ذات أهمية كبيرة في الكتابة العربية ، ويعتبرها العرب المميز والضابط بين الحروف . فعلى سبيل المثال اذا وضعت النقطة فوق الحرف (ب) قرىء نونا . واذا كانت النقطة أسفل الحرف قرىء باء . واذا كانت نقطتان فوقه قرىء تاء . واذا كانت النقطتان في أسفل الحرف قرىء ياء وهلم جرا . من هذا المنطلق استعمل العرب النقطة لتعبر عن الصفر مع الأعداد العربية فأعطوها الوظيفة التي لها مع حروف الضبط والتمييز فمثلا الرقم (١) اذا وضع الى يمينه نقطة أصبح عشرة أو الرقم الخمسة اذا وضعت الى يمينه نقطتان صار خمسمائة . وهكذا يتضح من هذا أن العرب ابتكروا الصفر واستعملوه في عملياتهم الحسابية وكتابتهم اللغوية ●

د. علي عبد الله الدفاع
جامعة البترول والمعادن — الظهران

الشباب يعيش عصر

يرى بعض المفكرين الاسلاميين ، الدعاة الى الاصلاح : أن الشباب ، من سوء حظه ، يعيش في عصر الأزمات والمشكلات ، عصر القلق النفسي ، والاضطراب الفكري ، وفقدان الثقة ، وحرص الفرد على أخذ حقوقه واهماله لحقوق الآخرين . هذا الى جانب استغلال طموحه وحماسه واندفاعه من قبل الغوغائيين واستخدامها لتحقيق أهدافهم وغاياتهم .

وقد أنتج ذلك بلبلة وفوضى في مراكز تجمعات الشباب كالجامعات والمعاهد والمعامل والمصانع ، فسادتها الفوضى وقلة الانتاج العلمي والصناعي ، بل اضطراب هذا الانتاج وقلة جدواه . ونشب الخلاف ، واشتد الصدام بين رجال التربية والتعليم وبين الطلاب من الشباب ، وبين الشباب من العمال والصناعيين وبين القائمين على المؤسسات التي يعملون بها ..

ويعتقد سماحة الأستاذ أبو الحسن الندوي ، المفكر والداعية الإسلامي المعروف ، ان قلق الشباب واضطراب سيرهم يرجعان الى أمور عديدة : منها عدم ايمانهم بقيمة ما تعطيه الجامعات من ثقافة وعلم — وتشككهم في إخلاص موجهيهم ونزاهتهم وسموهم عن الأغراض الشخصية — ثم ضعف الصلة بين الطلاب ومدرسيهم ، وافتقاد الشباب لرسالة ما .. يؤمنون بها ، ويتحمسون لها ، ويعملون في سبيلها .

ولإصلاح هذا الوضع القلق المضطرب للشباب يقترح الأستاذ الندوي : اثارة شعور الإيمان بمنافع العلم الدنيوية والأخروية في نفوس الشباب — وإيجاد القدوة الحسنة علما وعملا وسلوكا من أشخاص المدرسين والموجهين للشباب — الى جانب شغل عقولهم بفكرة أو دعوة تمنعهم عن تقبل الأفكار والدعوات الوافدة المعاكسة للاسلام فكرة ودعوة وعملا — ثم اقامة نظام اجتماعي يعيش فيه الشباب حياة اجتماعية اسلامية .

وبالنسبة للشباب العربي — في منطقة الشرق الأوسط — قال بعض الخطباء العرب : إن شبابنا ، كي يواجه التحديات الدخيلة ، لا بد له من التزود بالخبرات العلمية والفنية :

قلت ردا على قوله : ان الشباب العربي في مواجهة هذه التحديات لا يحتاج الى علوم وخبرات وفنون ، فهو يعيش في عصرها الذهبي ، ثم هو — أيضا — يتلقى دراسته وتجاربه فيها داخل بلاده وخارجها دون انقطاع .

ولكنّ الشباب العربي والاسلامي ، في المنطقة العربية وغيرها ، محتاج احتياجا شديدا وعميقا وشاملا الى تربية سلوكية تنمي فيه الرجولة والارادة والأخلاق .. هذا الثالوث التربوي العملي الذي يفتقده الشباب ، وهو سلاحه الباتر وزاده الوافر في معركته مع هذه التحديات ..

ذلك لأن نظرية « العلم لأجل العلم » هي التي جردت الغرب حين آمن بها وطبقها في جامعاته ومؤسساته العلمية والتقنية — جرّدت شبابه ورجاله من الخلق الإنساني ، ومن الإيمان بالمثل والمبادىء والغايات التي ميز الله بها الإنسان عن الحيوان .

وفي تقرير لمؤسسة «أمباسادور كولج» عن ظاهرة الضياع والملل والخيبة التي أصابت الشباب فأدت به الى الإنحراف والغرق في شهواته التي أفقدته طاقاته وقدراته وامتيازاته البشرية قالت المؤسسة :

« ان الشباب باعتقاده في « حرية الجنس » يعيش حياة يزاول فيها كل أنواع الجنس وأشكاله ، فلا غرابة أن تنتشر بينهم الأمراض المعدية بنسب كبيرة تصل أحيانا كثيرة الى درجة الوباء .

ثم ذهبت المؤسسة تشرح أسباب هذا « المسخ البشري » كما سمته وتعني فريق « الهيبيين » الذي تقلده غالبية الشباب في العالم فذكرت ما يلي :

٥٥ الأطفال يرون في مجتمعهم وبين آبائهم وأمهاتهم وأقربائهم سلوكا ذا وجهين حيث الكذب والنفاق والتناقض ، وحيث تعتبر السرقة منهج حياة كما يكون الغش طريق النجاح ، والمصلحة الذاتية هي الغاية لكل متعلم وكل عامل . وحيث الكنائس لا يزيد عن كونها مباني أشبه بالخرائب لخلوها من القوى الروحية الحقيقية .

٥٥ ثم هؤلاء الأطفال ينشأون في أسر مفككة ، أو في بيوت شقية يغيب فيها الحب المتبادل بين الأبوين ، أو في بيوت خاوية على عروشها ، لأن الأم أو الأب كلاهما يعملان ساعات طويلة خارج البيت ، فلا يجد الأولاد من يحدثهم ولا من يوجههم ، أو يلومهم اذا أخطأوا ، ويثني عليهم اذا أحسنوا .

بقلم: الأستاذ أحمد محمد جمال

الأزمات والمشكلات

وبذلك تنشأ الهوة الفكرية بين الكبار والصغار .. وبالتالي يبدأ شذوذ الصغار ونفورهم وعصيانهم الى جانب فساد الأسرة والمجتمع .. يعيش الأطفال كما يعيش كبارهم في خوف من حرب ذرية ، ومن سباق الفضاء ، ومن نشوب حرب عالمية . ومن هنا ينشأ القلق في نفوسهم كما ينشأ اليأس من إيجاد حلول عاجلة أو آجلة للأزمات العالمية والنزاعات الدولية ، واليأس أيضا من اكتشاف أدوية للأمراض المتزايدة .. أمراض القلب والسرطان .. ثم يكون رفضهم لهذا العالم العنيف المخيف !

النفور والإعراض بين الشباب والشيوخ

أما « كلود ألزون » في كتابه « محاولة لتفسير عدم النضج في أوساط الشباب » ، فيتهم الشباب المعاصر بالطفولة والعجز ، ويعلل رأيه : بأن مشكلات الشباب المعاصر ناتجة عن الهوة السحيقة من عدم الفهم المتبادل بينه وبين عالم الكبار .

ولا شك أن « كلود ألزون » صادق في وجهة نظره هذه . فالشباب نافرون ، والكبار معرضون أو متجاهلون ، وكان على هؤلاء الكبار من آباء وأمهات ومدرسين ومدرسات وموجهين اجتماعيين وموجهات ألا يقابلوا نفرة الشباب بنفرة مثلها ، بل يقابلونها بمحاولات حانية عاطفة لترويضها وتهذيبها ، واقناعها بالعودة الى الطريق الصحيح — ويقابلوها كذلك بالمسارعة الى حلول كافية شافية لمشكلات الشباب التعليمية والوظيفية والاجتماعية والنفسية .

الشباب ومفاتن العصر

وهناك من الدعاة الإسلاميين من يرى أن مشاعر الشباب المسلم تفتحت في هذا العصر على حياة مادية رهيبة ، حياة تقوم على التظالم والتطاحن والتحلل ، حياة تلاحقه وتطارده فيها بواعث الفتنة والرذيلة : من أفلام تجارية تتنافس في اثارة الغرائز الدنيا ، واشباع النزوات الرخيصة ، وكتب تتحدث عن قصص الجريمة التي تجعل من الحمل الوديع وحشا ضاريا ، وأغاني مبتذلة وألحان تئد الرجولة ، وتمجد الميوعة ، واعلانات تجارية تروج لسلعها بمناظر تتنافى مع مكارم الفضيلة والأخلاق ، ورسائل تحطم القيم والمثل والفضائل . وتدعو الى الانحراف وكسر القيود الأخلاقية .

ويرى هؤلاء الدعاة الاسلاميون : أن مكافحة هذا الوباء العقائدي والأخلاقي بين الشباب المسلم تتركز في افهامه حقيقة دينه ، واعطائه القدوة الحسنة من الكبار آباء وأمهات ومدرسين وموجهين ورجال حكم . لأن المواعظ وحدها لا تكفي .. كما لا تشفي التعاويذ والتمائم الأمراض البدنية . فكذلك انحرافات الشباب لا تقوم الا بازالة « التناقضات » من مجتمعاتهم وأسرهم ، ومدارسهم وجامعاتهم وأسواقهم ومتاجرهم .

وعلى ذكر المدارس — دنيا كانت أم عليا على مستوى الجامعة — يلاحظ رجال التربية الاسلاميون أن الطلاب يلقّنون أمشاجا من القيم وأخلاطا من الآراء المتناقضة ، من أساتذة متناقضين فكرا ومنهجا وسلوكا ، فهم — أي الطلاب ذكورا وأناثا — يتلقون من مدرس الفلسفة والأخلاق نقيض ما يدرسون على يد أستاذ الدين ، ويتعلمون العلوم عكس ما درسوه من كليهما .

وبرامج الاذاعة والتلفاز ومقالات الصحف ، واعلاناتها التجارية وغيرها متناقضة متنافرة يفسد الخبيث منها الطيب ، ويهدم المفسد منها المصلح ، وتوقظ فتنا نائمة ، وتثير غرائز ساكنة ، ويكذب بعضها بعضا ، وينقض آخرها أولها .. الأمر الذي يجعل الشباب في حيرة وقلق يتحولان قليلا قليلا الى رفض عنيف لمكارم الأخلاق ، ومبادىء الدين .

من أجل ذلك يركز كثير من رجال التربية والفكر والدعوة الاسلامية في كل ما تحدثوا أو كتبوا حول الشباب على مسألة « المثال الشخصي » الذي يفتقده هؤلاء الشباب في « الكبار » وعلى مشكلة « التناقض » بين القول والفعل وبين النظرية والسلوك ، ويشيرون الى أن التربية الاسلامية تعتمد أول ما تعتمد على « القدوة الطيبة » من الآباء والأمهات والمعلمين والمعلمات ، فالقرآن الكريم يؤكد مبادىء هذه التربية الناجحة في مثل هذه الآيات .

- **« يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » .**
- **« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ».**
- **« أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » .**
- **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة..»**

احمد محمد جمال ـ مكة المكرمة



العطور العربية
عبر التاريخ



وجدت الأزهار على اليابسة قبل أن يوجد الإنسان بزمن طويل ، ولها أشكال مختلفة وجميلة . كما تختزن رحيقا طيبا ذا رائحة عطرية عبقة . وقد منح الله هذا النوع من النبات تلك الخصائص وذلك لخدمة أغراض النوع النباتي الذي تنمو عليه الزهرة حيث تجذب اليها الحشرات التي تنقل اللقاح من زهرة الى أخرى مما يؤمن الأخصاب ونمو البذرة .

أما عطر الأزهار فانه يكون في صورة زيوت عطرية ، هي أساس معظم العطور الطبيعية التي يستخدمها الانسان . ويستخرج بعضها من الأوراق أو الثمار والبعض من السيقان وهكذا . ويجري استخراج العطر عادة باحدى الطريقتين التاليتين :

• التقطير — Distillation ، وهذه الطريقة تسير في وجهتين الأولى تؤخذ فيها الازهار لغليها والثانية يمرر البخار عليها . وفي كلتا الحالتين ، يحمل البخار الزيوت ، ثم يكثف الى ماء ، وعندئذ يطفو الزيت على السطح ويسهل فصله وتعالج عدة أنواع من الأزهار بهذه الطريقة .

• الاستخراج — Extraction وفي هذه الطريقة تتحلل الزيوت العطرية لبعض الأزهار أو تتلف بواسطة البخار حيث توضع في شحم مصهور ليمتص الزيوت . وتعامل الورود وازهار أخرى كثيرة على المنوال نفسه حيث تسمى التطرية — *Maceration* . وبعض الزهور حساس الى درجة أن حرارة التطرية قد تتلفه مثل الياسمين . وللحصول عليه تستخدم طريقة ابتكرت في فرنسا وتسمى « Enfleurage » أي نقع الأزهار . وفي هذه الطريقة توضع الأزهار بين طبقات من الشحم الحيواني النقي ، ليستخرج العطر منها كما هي الحال في عملية التطرية ، ولكن ذلك يتم ببطء أكثر . وتستخدم المذيبات الكيميائية لفصل الزيت عن الشحم حيث يكون الشحم الناتج النهائي وهو الزيت المصفى للأزهار .

تعد زراعة النباتات لصنع العطور متقدمة جدا في فرنسا ، وأكثر الأزهار استخراجا لهذا الغرض هي الورود ، ومن النباتات الهامة الأخرى التي تشكل مصدرا للعطور والطيوب الياسمين واللافندر والبنفسج والزعتر والأكاسيا وزهرة البرتقال والآس والنعناع وعدد كبير من أنواع الزهور الأخرى . وتتطلب عملية استخلاص العطور كميات كبيرة من الزهور ، فمثلا نجد أن ٢٥٠ رطلا من الورود تنتج فقط أوقية واحدة من الزيت العطري الذي يسمى « عطر الورود Attar of Roses » .

إن الاتجاه السائد اليوم في عالم التجميل هو العودة الى الطبيعة ، وهناك دعوة الى المرأة بالذات تحضها على العودة لاستخدام العطور والمساحيق المستخلصة من النباتات والأزهار الطبيعية ، واستخدام مساحيق



حدوث التجاعيد ، كانت تصنع من مسحوق بيض النعام مضافا اليها بذور الحنطة . ومن بين الوصفات العديدة لإزالة قشرة الرأس هناك وصفة تحضر من دهن فرس النهر وزيت السمك والشحم الليّن .

لقد استخدم الرجل والمرأة في الماضي العطور . وكانت العطور في ذلك الوقت بخلاف العطور الحديثة التي ترتكز على العطر الكحولي ، كانت تصنع من الشحم الحيواني ، أو الزيوت المستخلصة من الخضراوات كالفجل والخس وزيوت حبوب السمسم مطعمة بالعطور الطبيعية .

لقد أنتج صناع المراهم والعطور القدماء مجموعة من العطور المختلفة الرائحة من المنتجات الطبيعية التي ظلت حتى اختراع الروائح الصناعية ، هي نفس العطور التي كان يستخدمها الأجداد ويستطيبون رائحتها الزكية . وكانت تلك العطور تستخلص من أنواع عديدة من النباتات الطبيعية مثل اللوز المر ، وحبوب اليانسون ، والياسمين ، والورود ، والنعناع ، والأكاسيا ، وزهور نبات رقيب الشمس ، وجذور الشمندر ، وعيدان القرفة ، وزهور الحمضيات ، وزهور خشب الصندل وغيرها من النباتات والأزهار المتعددة .



التجميل المصنوعة من شمع النحل والعسل وبذور الحنطة ، وان ترطب المرأة أنفاسها بالمستحضرات السائلة المستخلصة من ثمار « الافوكاته » واللوز .

ان العودة الى الطبيعة من الأمور المحببة الى النفس . ولكن الادعاء بأن استخدام مستحضرات التجميل المستخلصة من النباتات الطبيعية أمر جديد في عالم التجميل فهذا غير صحيح . وذلك ان سكان الشرق الأوسط كانوا وما زالوا يستخدمون المستحضرات الطبيعية . ولم يكونوا يستخدمون غيرها أبدا . فقد كانوا يصنعون مستحضرات التجميل منذ زمن طويل ، اذ كانوا خلال القرن السادس عشر ينتجون أنواعا من « الدهونات » المركبة من العسل وشمع النحل وزيت السمسم .

قد يكون سبب ميلاد مستحضرات التجميل في الشرق الأوسط راجع الى طبيعة الجو الذي يسود المنطقة . حيث تلعب أشعة الشمس الحارقة ورياح الصحراء الجافة دورا كبيرا في إلحاق الضرر ببشرة المرأة . ثم جاء وقت بدأ فيه أحدهم في عمل الزيوت العطرية والمراهم كي تكون نوعا من أنواع الحماية والوقاية في مثل هذه الأجواء . هذا وما يزال علماء الآثار حتى يومنا هذا يعثرون بين حين وآخر على صفائح وقوارير عطرية . ويقال أن نقصا حدث في مستحضرات التجميل في عهد رمسيس الثالث كاد أن يؤدي الى حدوث اضراب بين العمال . كما قال أحد علماء الآثار أن العمال الذين كانوا يشتغلون في ساحة احدى المقابر الأثرية قد توقفوا عن العمل بسبب عدم توفر المراهم لحمايتهم من الحرارة .

والأهم من ذلك ، انه كان يتوفر لدى السكان الشرقيين بصورة فعليـــة كل أنواع مستحضرات التجميل من مراهم ومنشطات ، ومستحضرات سائلة ، ومساحيق تمتلىء بهـا الآن حقائب التجميل الحديثة . ولكن مثل هذه المستحضرات ربما تكون قد صنعت من مواد تختلف قليلا عن المواد التي تصنع منها في الوقت الحاضر . فهناك وصفة لتطرية الوجه على سبيل المثال ، تضمن نعومة الجلد وتمنع





لم تكن الأدوات والمعدات الخاصة باستخلاص العطور من النباتات الطبيعية متوفرة لدى الانسان القديم . وكل ما كان متوفرا لديه لم يتعد الأواني المطبخية التي كان بواسطتها يستخلص العطور باتباعه طرقا شتى من بينها طريقة نقع الأزهار الآنفة الذكر . وقد تمكن الانسان القديم بهذه الطريقة من انتاج المراهم العطرية التي كانت تشكل جزءا من مستحضرات التجميل التقليدية التي تستخدمها المرأة الشرقية .

وفي الاحتفالات كانت النسوة يضعن كرات من المرهم العطري فوق رؤوسهن . ومثل هذه المراهم العطرية ما زالت هي الأفضل حتى يومنا هذا رغم الطرق الباهظة التكاليف المتبعة حاليا في تحضير مثل هذه المراهم العطرية .

وهناك طريقة أخرى لاستخلاص عطر الأزهار وذلك بغمس الازهار والبذور والفاكهة في الزيت أو الشحم الحار . وفي عام ٢٧٠٠ قبل الميلاد طرأ تحسن على عملية استخلاص العطور ، يقوم على أساس تقنية استخلاص الزيوت . فقد كانت الازهار تجمع ثم تلف بقطع من القماش تنتهي من الجانبين بعيدان من الخشب ، وكانت هذه القطع تثنى في اتجاهين معاكسين بحيث يتأتى من هذه العملية استخلاص الزيوت العطرية الموجودة في الزهور . وهناك على جدران أحد المعابد في سقارا بالقرب من القاهرة ، والتي يرجع تاريخها الى حوالي ٤٧٠٠ عام ، صورة لامرأة تجمع أزهار الزنبق ، وهي الزهرة المشهورة في مصر العليا ، وتستخلص منها الزيوت العطرية بالطريقة المذكورة .

كما ان أصباغ الجفون ، والأهداب والحواجب وأحمر الشفايف ومساحيق تجميل الوجه ترجع كلها الى الشرق الأوسط . فقد كانت نساء المصريين ونساء ما بين النهرين يصبغن شفاههن وخدودهن مستخدمات في ذلك قطعا صغيرة من أكسيد الحديديك الأحمر يصعنها في قصبة صغيرة مجوفة ، كما استخدمت نساء السومريين مسحوقا لتجميل الوجه مصنوعا من أكسيد الحديديك الأصفر وكان يطلق على هذا المسحوق اسم « الوهج الذهبي » وهو مسحوق يضاهي أفضل المساحيق الحديثة .

لقد كان الغرض في الأصل من صبغ الأهداب وتكحيل الجفون هو من أجل حمايتها من الأمراض ، وهي عادة ما زالت شائعة حتى الآن في بعض مناطق الشرق الأوسط حيث كانت النسوة يطلين أهدابهن العليا بمسحوق كبريتيد الرصاص الأسود المعدني وأهدابهن السفلى باللون الأخضر مستخدمات في ذلك مسحوق «الملكيت» . ثم تحولن فيما بعد الى صبغ أهدابهن باللون الأسود مستخدمات في ذلك «الانتيمون» ، وهو مركب ما زال يستخدم حتى الآن في مستحضرات أصباغ العيون الحديثة . ومن جهة أخرى كان الأكاديون يطلقون على كبريتد الرصاص الأسود الذي كانوا يستخدمونه في تجميل العيون كلمة « جهل — Gohl » والتي منها اشتقت الكلمة العربية لهذا النوع من طلاء العيون وهي «الكحل Kohl » .

كانت هناك أيضا المظاهر العقائدية المرتبطة بالتجميل . ففي الوقت الذي تستخدم فيه المرأة العصرية في وقتنا الحاضر مستحضرات التجميل بهدف التطيب والتجميل بشكل عام ، كانت المرأة قديما تعزو عمليات التجميل الى أسباب





وضرورات طبية . وعقائدية حتى ان احدى الكلمات المصرية القديمة للعطر هي « أريج الآلهة » . وكانت تسميتهم لصفائح مستحضرات التجميل التي تستخدم في الحصول على أصباغ العين تعبيرا رمزيا عن الطقوس الدينية . لكن تلك التقاليد قد اندثرت تدريجيا دون أيما تأثير في طرق استخدام مستحضرات التجميل . وكانت في تلك الفترة قد أصبحت صناعة مستحضرات التجميل رائجة وخاصة في مدينة الاسكندرية التي كانت المراهم الملكية وعطور الياسمين تصنع منها تحظى بإقبال كبير من لدن سيدات البلاط الملكي في روما .

هذا ولم يقتصر استخدام العطور على أغراض التجميل فحسب بل امتد الى أغراض أخرى . فمثلا كان الرومان يضعون قطرات من العطور في زيوت المصابيح وفي ماء الشراب حتى يتسنى لهم الاستمتاع الكامل بأريجها العطر .

وفي العالم العربي . لقيت مستحضرات التجميل الشهرة نفسها التي كانت تتمتع بها في الغرب . فقد ورد ذكر العطور في العديد من الكتب القديمة التي كتبها عدد من مشاهير الكتاب العرب القدماء وكلها تحبذ العطور وتشيد برائحتها الذكية . وقيل عن عمر بن الخطاب . رضي الله عنه . انه قال : « لو كنت تاجرا ما اخترت غير الطيب . ان فاتني ربحه لم يفتني ريحه » .

وفي الفترة الذهبية من العصر العباسي الذي استمر من عام ٧٧٥ الى ٨٤٧ كانت مساحات واسعة من الأرض تزرع بالزهور بهدف صناعة العطور ومستحضرات التجميل . وكانت صناعة العطور من الورود . وأزهار الزنبق المائية . وأزهار البرتقال . والبنفسج وغيرها من الأزهار والنباتات العطرية . كانت مزدهرة في دمشق وبعض المدن الفارسية مثل « شيراز » و « جور » التي اشتهرت بعطر الورود الحمراء . وكانت العطور المستخلصة من هذه الورود تصدر الى شرق الصين . وغرب مراكش .

كما حظيت العطور المستخلصة من الورود بشهرة واسعة . ومما ورد ذكره في هذا الصدد أن الخليفة المتوكل وهو تاسع خلفاء العباسيين كان يحب عطر الورد الى درجة كبيرة حتى انه استأثر لنفسه زراعة الورود . وكان يقول ان عطر الورد هو سيد العطور . ومن العطور الأخرى التي اشتهرت في العالم العربي وكانت تحظى بشهرة واسعة . عطر الآس . والنرجس . والياسمين . والخشخاش والعصفر .

وقد تعرفت أوروبا خلال الحروب الصليبية الى منتجات مستحضرات التجميل الشرقية . وتعلق فرسان الفرنجة بشكل كبير بأنواع اللبان العربية ذات النكهة الخاصة . والعطور الدمشقية المنعشة . وأنواع الزيوت العطرة . وعطور الورود المختلفة القادمة من ايران . ورغم تضارب الأقوال في الدور الذي لعبته العطور بالنسبة للأزياء . فانها لا تزال تلقى رواجا عاما حتى أواخر عصر الملكة اليزابيت الأولى ملكة انجلترا . فقد جاء في احدى الروايات التمثيلية التي كتبها « شكسبير » والتي كانت تمثل على المسارح البريطانية . جاء على لسان احدى بطلات

اوبرا جيدة التكوين . مدببة نوعا . وبها ٣٠ بتلة . وهي زهرة فرنسية مشهورة .

فيرجو نقية البياض وأزهارها تعيش طويلا بعد قطعها

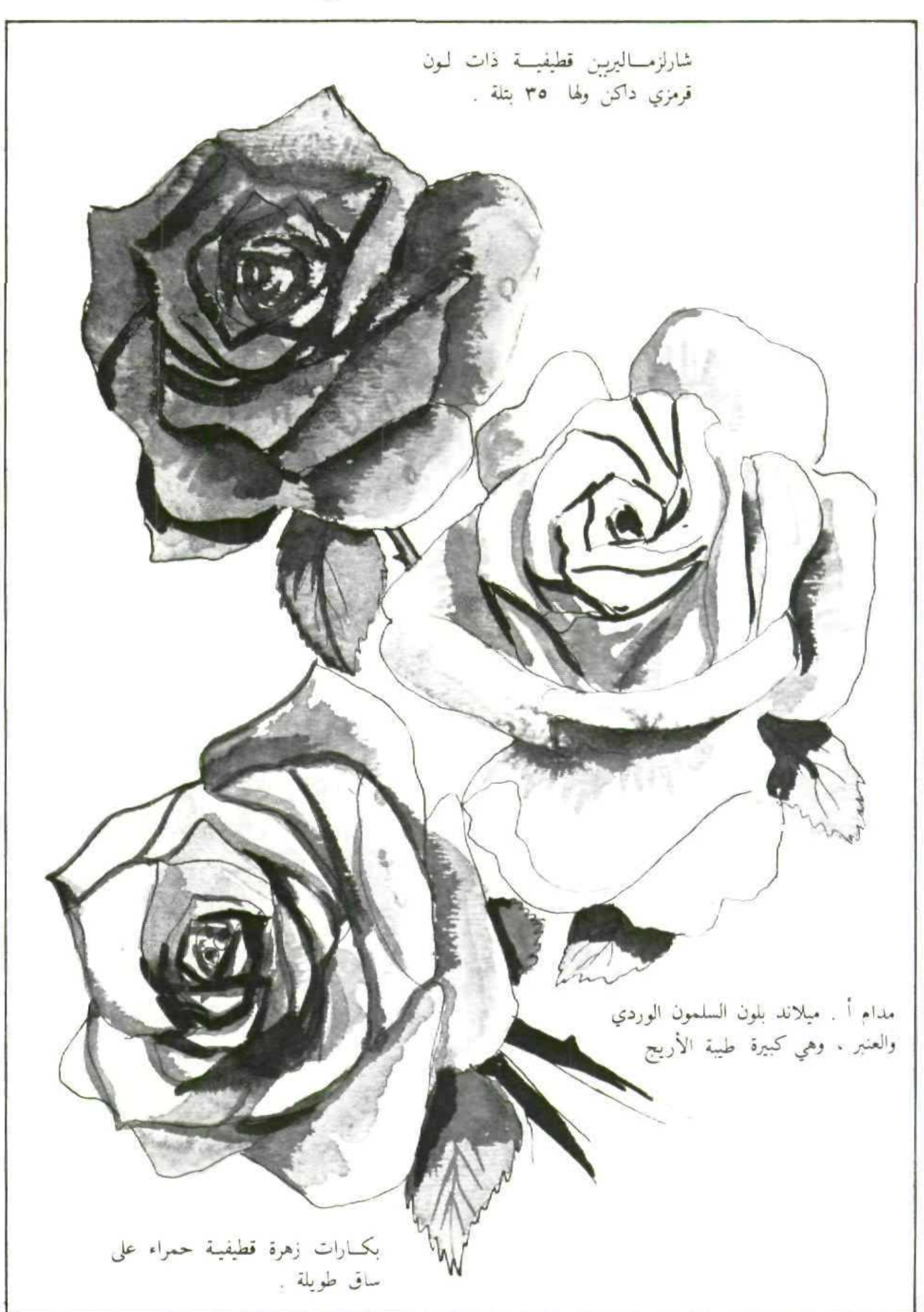
هذه المسرحيات ذكر للعطور العربية المستوردة من الشرق الأوسط .

واذا كان استخدام العطور ومستحضرات التجميل قد لقي رواجا واقبالا لدى الغربيين لفترة من الزمن ، ثم ما لبث هذا الاقبال أن تدنّى وقلّ ، فان استخدام مستحضرات التجميل ظل رائجا في الشرق الأوسط . والجدير بالذكر أن بعض المؤلفات الغربية التي ظهرت في القرن التاسع عشر قد تحدثت عن العطور العربية ومستحضرات التجميل وعادات المرأة العربية في استخدام هذه المستحضرات ، وعن الحمامات الشرقية المشهورة . ومما قاله بعض هذه الكتب في هذا الشأن : ان المرأة العربية كانت تستخدم حليب الماعز وتضعه على وجهها للتخلص من البثور ، كما كانت تضع شرائح من الخيار فوق عينيها لتضفي عليهما التألق والجمال ، كما كانت تضع الحناء على أطراف أصابعها كنوع من التزين .

وبالرغم من أن صناعة مستحضرات التجميل لم تعد مقصورة على الشرق الأوسط ، فان العديد من العطور الطبيعية التي تدخل في تركيب العطور الحديثة ، ومختلف أنواع الدهونات ، والسوائل المستخدمة في تطرية بشرة الأيدي ، والمساحيق ، ما زالت تأتي من مصر وغيرها من بلدان الشرق الأوسط . هذا ويجري الآن تصدير حوالي ٩٠ في المائة من الزيوت العطرية التي يتم انتاجها في مصر ، الى كل من الاتحاد السوفييتي وفرنسا وهولندا . ومع أن هذه الكميات المصدرة لا تلعب الدور نفسه الذي كانت تلعبه في العصور القديمة ، الا أن مصر ما زالت تحتل المرتبة الثالثة بين الدول الكبرى المصدرة لزيوت الأزهار العطرية المستخدمة في صناعة شتى أنواع العطور في العالم .

ومن الزهور التي تصدرها مصر « الغرنوقي » وهي أنواع ذات لون أحمر قان ، والسنا ، والزنبق المائي ، والبرتقال ، والليمون ، والياسمين ، وزيت العصفر . ويحتكر العطارون في « جراسي » وهي مركز صناعة العطور في فرنسا ، استيراد أزهار الياسمين من مصر . كما ان بعض أشهر أنواع العطور الفرنسية يتطلب ادخال اضافات على تركيبها ومواصفاتها فيما لو أريد استبدال أزهار الياسمين المستوردة من مصر بأزهار الياسمين المستوردة من ايطاليا أو مراكش . وتتأثر العطور الى حد كبير بالنسبة لطبيعة الأرض التي تنبت فيها الأزهار التي تشكل قوامها .

ورود مزروعة لصناعة العطر . تقطف الأزهار وتجمع في سلال كبيرة



شارلزمالبرين قطيفية ذات لون قرمزي داكن ولها ٣٥ بتلة .

مدام أ . ميلاند بلون السلمون الوردي والعنبر ، وهي كبيرة طيبة الأريج

بكارات زهرة قطيفية حمراء على ساق طويلة .

ان التغير الحقيقي الوحيد الذي طرأ على مستحضرات التجميل خلال السبعة آلاف عام الماضية هو طريقة صناعتها وتسويقها . ورغم الانجازات العلمية والتقنية الحديثة المستخدمة في تحسين الطيوب الاصطناعية ، فان صناعة مستحضرات التجميل أخذت تميل أكثر من أي وقت مضى الى الاعتماد على العناصر الطبيعية . كما أن مستحضرات غسل الشعر « الشامبو » تهيىء الفرصة للأشخاص الذين يستخدمونها للاستفادة من المواد المقوية الكامنة في عناصرها الأساسية . وفي الوقت نفسه أخذت المجلات التي تعنى بالتجميل تثني وتطري على الكحل ، وعادت الحناء مرة أخرى لتصبح من المستحضرات الشائعة الاستعمال في صباغة الشعر . ولو اننا نظرنا اليوم الى المرأة الحديثة وهي تضع اللمسات الناعمة الأخيرة من عطر خلف أذنيها ، وصبغ أهداب عينيها ، لوجدنا أن هناك أكثر من شيء مشترك يجمع بينها وبين ملكات الشرق الأوسط في العصور السالفة ●

اعداد : يعقوب سلام

عن أرامكو وورلد



"بتينا" زهرة مدموجة ذات بتلات مهدبة الحواف .

سورايا . زهرة كبيرة لونها في حمرة الجيرانيوم مع بريق بنفسجي

جريس اف موناكو زهرة كبيرة ذات بتلات وردية رقيقة .

احد المتاجر الانيقة لبيع العطور في مدينة الطائف بالمملكة العربية السعودية



العطور المستخلصة من الزهور والورود تفضل سائر أصناف العطور الصناعية الأخرى.

راجع مقال «العطور العربية عبر التاريخ»

تصوير: علي عبدالله خليفة



الآثار هي المرآة الصادقة التي تعكس مستوى الحضارات الغابرة .

راجع مقال « مدينة أفاميا »

تصوير : خليل أبو النصر